Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطنة عمان

وزارة التراث القومي والثقافة

الإباضية بين الفرق الإسلامية

عرض كتاب المقالات في القديم والحديث

تأليف

علي يحيى معمر

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الإباضية بين الفرق الإسلامية

عند كتاب المقالات في القديم والحديث

تأليف
علي يحيى معمر

الجزء الأول
الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ».

قرآن كريم
سورة النمل الآية (١٩)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا أخى فى الله ! . .

أخى فى الله ! أرجو أن تقرأ هـذه الفصول المعروضة بين يديك فى هذا الكتاب محتسبا أجرك على الله . وأن تأخذ منها ما استبان لك أنه الحق بحفاوة . وأن تنبذ ما استبان لك أنه الباطل على طول يدك ، وأن تزن كل ذلك بالميزان الدقيق الذى لا يخطىء من قوله تعالى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وأن تضع فى اعتبارك أننى أرى أن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تقف متساوية على صعيد واحد ، فليس فيها — بصفتها الجماعية — فرقة أفضل من فرقة ، ولا مذهب خيرا من مذهب . وأن فى المنتمين الى كل فرقة أو مذهب أتقياء بررة ، وأشقياء فجرة ، وسواداً أعظم وهو وسط بين ذلك .

وأن تعلم أن النقاش الذى جرى على قلمى — فى شدته ولينه ، وفى قسوته ورفقه — لا أريد به الدعوة الى المذهبية ، ولا الدفاع عن مذهبية ، وإنما أريد به تحطيم المذهبية . وأنا على يقين — فى نفسى — أن المذهبية فى الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة . ولا تتحطم بالقانون فإن هذه الوسائل لا تزيدها الا شدة فى التعصب وقوة فى رد الفعل . وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف . فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به . وبالتعارف يشتركون فى السلوك والأداء الجماعى للعبادات وبالاعتراف يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحق الذى يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفى ظل الأخوة والسماح تغيب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التحديات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت فى الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهبا أو اعتنقت مذهبـا •

ولن نصل الى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم أتبـاع جابر وأبى حنيفة ومالك والشافعى وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس أن أئمتهم أيضا يقفون فى صعيد واحد لا مزية لأحدهم على الآخـرين الا بمقدار ما قدم من عمل خالص لله •

قيـل عن الإباضـية

* « وكل من يتهم الإباضية بالزيغ والضلال ، فهو ممن فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجهال ، جمع الله ما فرقوا ورتق ما فتقوا ، ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط بالكافرين »

خلاصة الرسائل فى ترتيب المسائل طبعة سنة ١٣٥٦ هـ

عضو المجمع العلمى العربى عز الدين التنوخى

* « واذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد فى الماضى ، فلا زالوا كذلك فى عصرنا الحاضر » •

إسلام بلا مذاهب : مصطفى الشكعة

* « ومن كل هذا يتبين • اعتدالهم وإنصافهم لمخالفيهم » •

كتاب المذاهب الإسلامية : محمد أحمد أبو زهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » .

الكامل : المبرد

* « ورجال الإباضية يضرب بهم المثل فى التقوى والصلاح والزهد » .

تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الأفريقية : يحى هويدى

* « إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية — أهل الإستقامة — من الدعابات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولا ثم المذهبى ثانيا » .

أبو إسحاق طفيش

* « يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية فى تأصيل قضايا العقيدة » .

بيوض إبراهيم بن عمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمـــة

اختار بعض من كتب عن عقائد الفرق الإسلامية وآرائها ومذاهبها من الكتاب القدماء ـــ كلمة المقالات ـــ فأطلقها على ما ذهبت إليه كل فرقة فى ذلك ، وأحسب أن اختيارهم لاستعمال هذه الكلمة فى هذا المجـــال كان موفقا جداً ، فان موافقهم ـــ رغم ما فيها ـــ لا تزيد عن مقالات •

وعندما يرجع الباحث اليـــوم الى أكثر تلك المقالات التى تـــوزع فيها المسلمون ، وتشتتوا الى فرق لا حصر لها ، يضرب بعضها بالبعض ، حسبما تقتضيه ظروف كل عصر ، يجد أن الجزء الأكبر منها لا يعـــدو مواضيع سياسية معينة ، تتناول بعض قضايا الحكم ، أو مشاكل التعامل بين المتخالفين فى رأى أو وجهة نظر معينة •

والحقيقة أن بعض الأقلام كانت مولعة بتكثير أصحاب المقالات ، فما تسمع بنقاش جرى بين اثنين حتى تسارع فتجعل لكل واحد منهما فرقة وتجعله إماما أو رئيسا لتلك الفرقة •

والشواهد على ذلك فى كتب المقالات كثيرة وقد يجد القارىء فى هذا الكتاب صوراً منها •

ولا شك أن أصابع السياســـة وراء هذا كله ـــ وســـواء فى ذلك السياسات الحاكمة أو السياسات المضادة لها ـــ ولا شـــك أيضـــا أن الأقلام التى تناولت ذلك سارت دون وعى ـــ فى أكثر الحالات ـــ فى ركاب سياسة مخططة فحققت لها كثيراً من المقاصد والأهداف •

ويلاحظ الدراس لهذا الموضوع ، أن كثيراً من الأشخاص الذين اعتبروا أئمة لفرق ، ونسبت إليهم أقوال فى قضايا الساعة ليسوا ـــ على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحسن التقديرات — إلا رجالا من العوام أو أشباه العوام ، يملكون ألسنة حادة ، أو سيوفا قاطعة ، أو إرادات صلبة ، فهم فى نظر السياسة خطر على أمن الدولة ، أى — على كراسى الحكم — • ومع ذلك فقد نسبت اليهم مقالات شاذة فى قضايا تشغل فكر الجماهير فى ذلك الحين ، فهل كانوا حقا يقولون بها ، وهل كانوا حقا فى المستوى العلمى الذى يتيح لهم أن يصدروا أحكاما فى مثل هذه المسائل الدقيقة ؟ أم إن السياسة الماكرة هى التى استطاعت أن تقوّلهم أو تدس عليهم ذلك • ثم توجه إليهم الأنظار •• أنظار النفرة والكراهية ، فنجحت فى إدانتهم وإبعاد الناس عنهم •

والباحث اليوم عندما يعود إلى التنقيب عن هذا الموضوع يرى عجبا • فرق كاملة بأئمتها وأقوالها ومواقفها الحاسمة لا يعثر لها على أثر أبداً إلا ما يقصه عنها خصومها فى كثير من المبالغات •

عندما كنت أقرأ فى كتب المقالات ما يتصل بالإباضية تصادفنى عجائب فى العقائد والآراء والأقوال تنسب إليهم ، إما بعبارات واضحة صريحة أو بأساليب ملتوية ، ولكنها معبرة ، وتصادفنى كذلك أسماء لأشخاص كثيرين يعتبرون أئمة لهم ، وأنا على يقين كامل بأن ذلك غير موجود عند الإباضية • فاذا كانت هذه الحال مع فرقة ينتشر أتباعها فى كثير من البلاد الإسلامية ، ولا يخلو قطر من أقطارها من كتبهم ، فكيف الحال مع من إنقرض فلم يبق له أتباع ، ولم يترك كتبا مصنفة فيما يختص به ، وإنما عاش — إن صح هذا — يطفح على ميدان الحياة حتى طواه موج الزمن فى ذكرى التاريخ المجردة •

لقد أصاب الإباضية من كتاب المقالات كثير من الأذى ، قد لا يكون مقصودا ، ولكنه واقع ، وقد أحدث بالفعل فجوة بينهم وبين إخوتهم فى بقية المذاهب ، كانت متسعة فى الماضى وأصبحت تضيق • ونرجو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تتمهد وتزول فى هذا العصر الذى يجب أن يتلاقى المسلمون فيه على وحدة العقيدة ، ووحدة العمل ووحدة السلوك ، فى مجابهة أعداء الإسلام ، مع مراعاة صادقة لحرية الرأى والفكر ، واحترام كامل لجميع أئمة المسلمين وعلمائهم السابقين • دون تهجم أو انتقاض ، ودون تقديس أو تعظيم (١)•

وفى هـذا الكتاب حاولت أن أرافق بعض الكتاب مـن القـدماء والمعاصرين ، لنتعاون على وضع هذه الفرقة من المسلمين (الإباضية) فى مكانها الحقيقى من الأمة الإسلامية • واضعا فى اعتبارى أن الكتاب القدماء يسعهم من العذر ما لا يسع الكتاب المعاصرين وإن أخطاء أولئك فى كثير من الأحيان ينتج عن عدم وجود الوسائل فى حين أن جميع الوسائل متوافرة لدى الكتاب المعـاصرين • أما المستشرقون فلهـم دوافعـهـم الخاصة للكتابة عن الإسلام والمسلمين • ومناقشاتى فى جميع الفصول لجميع هؤلاء قد تتأثر بهذه الإعتبارات فيتغير الأسلوب من كاتب الى كاتب •

يشتمل الكتاب على ستة أقسام غير المقدمات كل قسم يحتوى على عدد من الفصول :

القسم الأول : مع القدماء •

القسم الثانى : مع المعاصرين •

القسم الثالث : مع المستشرقين •

القسم الرابع : آراء للإباضية •

القسم الخامس مفاهيم يجب أن تختفى •

---

(١) المقصود بهذه الكلمة اعتبار اى امام او ولى معصوما او كالمعصوم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم السادس : ملاحظات وتعاليق •

أرجو أن أكون قد استطعت أن أضع بين يدى القارىء الذى يهمه أمر الأمة الإسلامية جمعاء صورة واضحة لمكان الإباضية فيهـا ، وأن أصحح بعض الأخطاء عنها توارثتها الأجيال ، وتعاون عـلى تضخمها التعصب من جهة ، والجمود والتقوقع من جهة أخرى •

ويهمنى أن أذكر أنه يوجد خلاف بين الإباضية وغيرهم من المذاهب فى عدد من المسائل كما يوجد خلاف بين الحنفية وغيرهم والشافعية وغيرهم والمالكية وغيرهم وكما يوجـد خـلاف بين بقية المذاهب وبين علماء كل واحد من هذه المذاهب فيما بينهم • ولكن يهمنى أيضا أن أذكر أن هذا الخلاف فى مجموع صورة وموضوعاته إنما نتج عن أساسين •

الأول : فهم الأئمة والعلماء للأدلة فى نصوصها الثابتة من الكتـاب والسنة •

الثانى : حرص أولئك العلماء والأئمة على إصابة الحق فى الفهم والاستدلال والعمل بالمقاصد الحقيقية للشريعة الإسلامية • وليس فى هذين الأساسين اللذين نتـج عنهما الخلاف مـا يدعو الى الخصـومة أو القطيعة •

نضرع الى المولى تبارك وتعالى أن يلهم هذه الأمة رشـدها ويوحد صفها وينصرها على المتربصين بها • ٢٥ مارس ١٩٧٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

الإباضية فى قفص الاتهام

* مع القدماء •
* الإباضية عنـــد الأشعرى •
* تشنيعات الأشعرى على الإباضية •
* مقالات الإباضية عند الأشعرى •
* البغدادى والإباضية •
* ابن حزم والإباضية •
* أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية •
* أبو الفتح الشهرستانى والإباضية •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإباضية فى قفص الاتهام

ان وضع الإباضية بالنسبة الى إخوتهم من المذاهب الأخرى وضع غريب • فبرغم أنهم يعيشون فى بعض البلاد مندمجين مختلطين باخوتهم من المذاهب الأخرى ، يتعاملون معهم فى جميع شئون الحياة كما يتعامل بعضهم مع بعض • وتربط الكثير منهم علاقات مودة وصداقة أوثق كثيراً مما تربط أهل المذهب الواحـد ، ويتصرف أولئك الإباضيون فى المجتمع تصرف المسلم الطبيعى ، لا يخفى ولا يشـذ شىء من سلوكهم الدينى أو المدنى ، ولا ينقم عليهم إخوتهم أولئك الذين يعيشون معهم فى السراء والضراء ، بدعة يعرفونها ، أو انحرافا يرونه ، أو خلافا يدعو الى سوء الظن • رغم كل هذا فان تلك الكلمة التى أطلقتها عليهم شفة مغرضـة مجهولة ، فى فترة كانت السياسة تلعب فيها أهم الأدوار فى توجيه الفهم لمن ينتقد انحرافها عن منهج العدول من أصحاب رسول الله ﷺ ، منذ ذلك التاريخ فى العصر الأموى — فيما يبدو — والإباضية يقفون فى قفص الإتهام — يقاسون ألم الجفاء من إخوتهم لأنهم — فيما تزعم تلك التهمة الظالمة — (خولرج) ومن المؤسف أن أكثر الكتاب — سواء كانوا كتاب مقالات فى العقائد ، أو كتاب تاريخ يتتبعون مجارى الأحداث السياسية — وقفوا بالنسبة الى الإباضية موقف المدعى العام الذى يعتقد أن نجاح مرافعته يتوقف على إثبات التهمة أو قاضى التحقيق الذى يهمه أن يضع أوزار الجريمة على من ساقته الظروف إليه • ووضعته التحـريات بين يـديه •

فهم يضعون هذا المذهب وأتباعه فى قفص الإتهام أولا ، ويحكمون عليهم بأنهم مخطئون لأنهم خوارج ، وبعد ذلك قد يبحثون عن الأدلة ، ولكن لإثبات هذه التهمة • لا لمعرفة الحقيقة •

وعندما يتقدم الإباضية بعرض عقائدهم وآرائهم والأدلة الشرعية التى استندوا اليها ، ويبينون سيرتهم وسلوكهم ، يعتبر كل ذلك منهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلاما فى موقف الدفاع ، لا يجوز على القاضى الذكى • فهو لا يسمعه ، ولا ينظر فيه ، واذا استمع إليه فلكى يلتقط منه جملا تعزز التهمة ، وقد يحرفها قليلا حتى تكون صالحة كدليل للإثبات •

وقد يعرض الإباضية عقيدة أو رأيا لهم بأدلته وبراهينه وهو فى نفس الأمر يوافق عقيدة القاضى • ولكن القاضى يصر مع ذلك أن القوم مخطئون وأن ما يقولونه إنما هو كلام للدفاع • ثم يحكم برفض الدفاع ، وإثبات الدعوى ، لا لشىء إلا لأنهم حسبما بلغ الى علمه (خـوارج) وحتى عندما يقول الإباضية عن عقيدة أو رأى أنه عندهم كفر وخروج من الملة ، فإن هذا القول لا يقبل منهم ، ويستمر إثباته لهم ومحاسبتهم عليه • وقد يبرأون من رجل ومن أعماله وأقواله ممن لا ينتمى إليهم ولكن يقال لهم أيضا : بل هذا الرجل من أئمتكم • ولو أنكرتم ذلك •

والمشكلة أن رافعى الإتهام لا يحاولوا أبدا أن يبحثوا عن الحقيقة ، ولا أن يرجعوا فى تحقيقهم الى مصادر الإباضية ، وإنما يتناقلون التهمة بنصها من جيل الى جيل دون اعتبار لصراخ المتهم الموجـود فى القفص أو اهتمام به أو سماع لدفاعه •

وفى عصرنا هذا اهتم عـدد من كتاب المقالات ، ومحققى الكتب : بشئون الفرق الإسلامية ، وعرض بعضهم فيمـا عرض للإباضية ، وبين يديه كتب قيمة لهم يستطيع أن يتخذها مراجـع يستقى منهـا أقوالهم ويستطيع أن يعرف فيها أصول ديانتهم وفروعها ويصحح — متأكدا — ما يجده من أخطاء عنهم فى غيرها • والى جانبه علماء فضـلاء منهم فى إمكانهم أن ييسروا له الوصول الى الحق ولكنه فى الواقع يزور عن ذلك ، ولا يرجع الى تلك الكتب ، ولا الى أولئك العلماء ، وإنما يعود بالتفتيش الى كتب ليست لهم وإنما كتبها غيرهم عنهم من ظروف مجهولة ، وهى غالبا لا تسلم من الأخطاء عن حسن النية إن سلمت من سوء النية ، بل هى عرضة للأخطاء من عدة جوانب منها :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١ ــ عدم توافر النزاهة الكاملة فى الكاتب •

٢ ــ سيطرة آراء معينة على الكاتب تجعله غير مستعد لفهم غيرهـا أو حتى مجرد مناقشتها •

٣ ــ كفاءة الدراسة والتحقيق قد لا تكون عنده بالدرجة التى يفرق بها بين الصـواب والخطـأ •

٤ ــ المصادر التى يستقى منها ويعتمد عليها ــ سواء كانت كتبا أم بشراً ــ قد تكون مغرضة ، وقد تكون مستغفلة ، وقد تكون مستغلة ، وقد تـكون جاهلة لحقيقة ما تثبـت •

٥ ــ وسائل الإتصال التى تساعد على البحث والوصول الى الحقيقة بالإتصال الشخصى المباشر كانت غير سهلة ولا ميسورة •

٦ ــ النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظن ، وشدة التعصب ، وتمسك كل بما عنده والحكم مسبقا عـلى الآخرين بالخطأ والضلال ، هذه العراقيل كلها أو بعضها تجعل الوصـول إلى الحقيقة عسيرا حتى بالنسبة للنزيه الحريص على الحق ، فان سوء الظن يلقى ظلالا من الشك عليه لا تمكنه من الإطلاع •

٧ ــ الإشاعات الكاذبة ، والدعايات المضللة التى تنطلق عن دوافع سياسية غالباً ، فتصل الى ناس مـوثوق بهم ، فتجرى على ألسـنتهم أو أقلامهم ، فتتلقفها منهم الآذان دون معرفة مصـدرها الحقيقى ، والدوافع السياسية الماكرة الى الإيحاء بها •

هذه بعض الجوانب التى كانت تؤثر على الكتاب الأقدمين ، وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتبه إليها بعضهم ، وعرف مدى تأثيرها على المؤلفين ، وما يتسبب عنها من أباطيل تلتصق بطوائف من المسلمين هم منها أبرياء •

يقول أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (١) ما يلى :

« ورأيت الناس فى حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ، ويصنفون فى النحل والديانات ، من بين مقصر فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه ، ومن بين معتمد للكذب فى الحكاية ، إرادة التشنيع على من يخالفه ، ومن بين تارك للتقصى لروايته فيما يرويه ، من اختلاف المختلفين ، ومن بين من يضيف الى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به » • فأنت ترى أن أبا الحسن الأشعرى — وهو من أوائل من كتب فى هذا الموضوع — قد انتقد عدة عيوب فى أولئك الذين يتصدون للحديث عن مخالفيهم ، كالتقصير فى التحقيق ، واعتماد الكذب ، والغلط ، وعدم التقصى فى البحث ، والزيادة فى الأقوال لإلزام المخالفين الحجة •

أما الشهرستانى كتابه (الملل والنحل) فهو لم يذكر نقدا بهذه التفاصيل وإنما أشار إليها من طرف خفى ، فقد قال ما يلى (٢) :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم ، ومن غير تعصب لهم ، ولا كر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » •

وهذا الكلام يشعر أن الشهرستانى رأى كما رأى الأشعرى من قبله ، عدم التحقيق فيما يقال عن الفرق ، ولذلك فقد شرط على نفسه

---

(١) مقالات الاسلاميين طبعة النهضة ١٣٦٩ هـ صفحة : ٣٣ .

(٢) الفصل فى الملل والنحل طبعة ١٣٦٨ هـ صفة ٦٠ من الجزء الأول .

أن يأخذ أقوال أصحاب الفرق من كتبهم ، دون التعرض لنقـــدها أو تصحيحها .

فهل استطاع أبو الحسن الأشعرى أن يتحقق أن مـــا أورده عن الفرق قد سلم من تلك العيوب التى ذكرها وعزم أن يتحرز منها ، والتى انتقدها على غيره من المتحدثين والكتاب بقوة وجرأة تستدعيان أن تجاب ؟!! وهل استطاع الشهرستانى أن يوفى بشرطه ؟ وأن لا ينقل مقالات أهـــل الفرق إلا مـــن كتبهم ومصادرهم ؟! وأن يلتزم معها الحياد الكامل فلا يصوب ولا يخطىء ولا يرجح ؟

ذلك ما سوف نراه فى الفصول الآتية إن شـــاء الله تعالى ، ونحن نرافق هؤلاء الأئمة العظام وغيرهم فى رحلة علمية ، نستمع فيها إليهم ونقرأ لهم ، ونأخذ عنهم . ونسترشدهم فى الوصول الى الحق الـــذى هو غاية الجميع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

مع القدماء :

إن الذين كتبوا عن العقائد الإسلامية ، واستعرضوا مقالات الفرق فيها — من القدماء — عـدد كبير ، وليس فى وسـع الدارس أن يتتبعهم جميعاً ولا أن يستحضر كل ما قالـوه ، ولكن فى إمكانـه أن يقـوم بدراسات بعضهم ، وأن يأخذهم كأمثلة أو نماذج يستدل بها على الأسلوب أو المنهج الذى سلكوه أو سلكه أكثرهم .

وبعد دراسة لموضوع الإباضية فى عدد من تلك الكتب ، واستعراض لمناهجها وأساليبها فى البحث ، استقر رأيى على اختيار خمسة من المؤلفين لأقوم معهم بهذه الرحلة العلمية ، التى آمل أن يجد كل قارىء يصحبنا فيها بعض المتعة إذا لم يتحصـل فيها على فائدة .

وقد فضلت أن أبدأ المسير مع هؤلاء الخمسة الذين اخترتهم كنماذج حسب ترتيبهم الزمنى على ما يأتى :

١ — أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ

٢ — عبد القـاهر بن طاهـر البغـدادى المتـوفى سنة ٤٢٩ هـ

٣ — أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

٤ — أبو المظفر شاهفور بن طاهر الأسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ

٥ — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إننى أعتقـد أن هـؤلاء الكتاب هم من أشهر من كتب فى هـذه المواضيع ، وكتبهم تعتبر مصادر ومراجع لا يستغنى عنها باحث فى هـذا المجال ، وكل من جـاء بعدهم إنمـا هو عالة عليهم ، منهم يأخـذ ، أو على منهاجهم يسير .

وأما الكتب فهاهى حسب ترتيبهم السابق .

١ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين	الأشعرى
٢ ـ الفرْق بـين الفِرَق	البغدادى
٣ ـ الفصـل فى المـلل والنحـل	ابن حزم
٤ ـ التبصـير فى الدين	الأسفراييني
٥ ـ المـلل والنحـل	الشهرستانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإباضية عند الأشعرى

قد يعجب القارىء الكريم إذا قلت له : إن أبا الحسن الأشعرى رغم أنه كتب عن الإباضية كثيرا ، فإنه لا يعرف عن الإباضية شـيئا ، وإن أكثر ما كتبه عنهم لا علاقة لهم بـه ، ولا علاقة له بهـم وليتضح للقارىء الكريم هذا القول فإننى أرجو منـه أن يرافقنى قليـلا ، وأن يقرأ الفصـول المعقودة لدراسة أبى الحسن الأشعرى مع الإباضية .

يقول أبو الحسن الأشعرى فى كتابه (مقالات الإسلاميين) صفحة ١٧١ من الجزء الأول ما يلى :

« ومن الخوارج الإباضية :

فالفرقة الأولى منهم يقال لهم الحفصية كان إمامهم حفص بن أبى المقدام ، زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحـده ، فمن عـرف الله سبحانه ثم كفر بما سـواه من رسـول أو جنـة أو نار أو عمـل بجميع الخبائث من قتل النفس ، واستحلال الزنى ، وسائر ما حرم الله من فروج النساء ، فهو كافر برىء من الشرك » .

واستمر الأشعرى يذكر أمثال هذه الشنائع لهذه الفرقة ثم قال : « والفرقة الثانية منهم يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد بن أنيسة » ثم ذكر آراء هذه الفرقة وشنائعها ، ومنهـا : « وزعم أن الله سبحانه سيبعث رسولا فى العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحـدة » . ويقول بعد أسطر : « وتولى — أبى يزيد هذا — من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوءة من أهل الكتاب ، وان لم يدخلوا فى دينه ، ولـم يعملوا بشريعته ، وزعـم أنهـم بذلك مؤمنون . ثم يقول :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« والفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الإباضية » • وبعد أن يذكر لهم جملة من التشنيعات يقـول :

« والفرقة الرابعة منهم ، يقـولون بطاعة لا يراد الله بهـا ، على مذهب أبى الهذيل ، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله ، إذا فعل شيئا أمره الله به ، وإن لم يقصد الله بذلك الفعـل ، ولا أراده به » •

هكذا بدأ أبو الحسن الأشعرى حديثه عن الإباضية فبمجرد ما ذكرهم بدأ فى تقسيمهم الى فرق ، وجعل ينسب الى كل فرقة جمـلة من الآراء والأقوال •

والقارىء الكريم عنـدما يبدأ فى قراءة ما كتبـه الأشـعرى عن الإباضية يفهم أن الإباضية ينقسمون الى أربع فرق كبرى هى هـذه الفرق التى ذكرها ، وأن بعض هذه الفرق قد انقسم أيضا الى فـرق أخرى فرعية ، وذكر الأشعرى أقوالا أخرى وشنائع أخرى نسب بعضها الى جميع الإباضية ، ونسب بعضها الى احدى تلك الفرق •

وعند الرجوع الى كتب الإباضية التى ألفت فى عصر أبى الحسن والتى ألفت قبله والتى ألفت بعده ، فإن القارىء لن يجد فيها شيئا عن هذه الفرق ، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمتها • وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عنـد الإباضية ، التى تتقصى أخبـار أئمتها وعلمائها ومشائخها ، فإنك لن تجد ولا إشارة عابرة الى أولئك الأئمـة الذين ذكرهم الأشعرى واعتبرهم أئمة لفرق كاملة من الإباضية •

واقرأ ما شئت فى كتب العقائد عند الإباضية ، فإنك لن تجد ذكرا لهذه الفرق ولا لآرائها ، وكل ما نستطيع أن نعتذر به عن ايراد أبى الحسن لهـذه التفاصيل أنه وقع فريسة لبعض المشنعين ، فكان يتلقى مقالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرق عن ناس يثق بهم ، ولكنهم ليسوا فى المحل الذى يراه لهم ويضعهم فيه من الثقة والصدق • سواء كان نقله عنهم عن طريق الرواية والسماع ، أو عن طريق القراءة والإطلاع فى كتب مدونة • فهو لم يشر إلى أىّ ذلك على كل حال •

ويكفى فيما أعتقد لنفى أن يكون ما قاله أبو الحسن عن الإباضية صحيحا جهلهم به ، وعدم ذكرهم لأى شىء منه فى مراجعهم العامة والخاصة المكتوبة والمتحدثة •

يقول أبو الحسن : « فالفرقة الأولى يقال لهم الحفصية ، كان إمامهم حفص ابن أبى المقدام ، ومع كثرة ما قلبت فى كتب الإباضية ومع العناية والبحث فإننى لم أعثر على هذا الإسم الذى اعتبره أبو الحسن إماما من أئمتهم • ولم اعثر كذلك على شىء من أخبار فرقته وآرائها • وقد نسب أبو الحسن الى هذه الفرقة وإمامها أقوالا يكفى بعضها لإخراجهم من الإسلام ، والحكم عليهم بالشرك والردة ، إذا سبق أن كانوا مسلمين ، منها : إنكار النبوة ، وإنكار الجنة والنار ، ومنها استحلال الزنى وغيره مما حرمه الله ، وأشياء أخرى من هذا النوع • وهى كافية — إذا قال بها حقا — للحكم بخروجه وخروج من تبعه فيها من الإسلام • فكيف يصح أن تنسب هذه الفرقة إلى إحدى فرق المسلمين ؟ وكيف يصح لمن يقال فيهم إنهم فرقة من الإباضية ؟ ! •

قد تكون هذه الفرقة موجودة ولها علاقة ما بفرقة أخرى من فرق المسلمين وقد يكون حفص هذا إماما فى أية فرقة أخرى • أما أن يكون هو وأتباعه — إن وُجِدَ — وُجِدُوا — فى الإباضية ، وأن تكون آراؤه التى ساقها أبو الحسن آراء الإباضية ، فهذا هو المستحيل بعينه • ويتصفح أى كتاب من كتب العقائد عند الإباضية سوف يتضح أن ما بها يناقض مناقضة كاملة لهذه المزاعم التى ساقها أبو الحسن على لسان حفص ونسبه ونسبها الى الإباضية •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول أبو الحسن الأشعرى «والفرقة الثانية يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد ابن أنيسة » وذكر فيما ذكر من آراء هذه الفرقة ما يلى : « وزعم — أى يزيد بن أنيسة — أن الله سبحانه سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحدة ، فنترك شريعة محمد ، ودان بشريعة غيرها وزعم أن ملة ذلك النبىء الصابئة ، وليست هذه الصابئة التى عليها الناس اليوم ، وليس هم الصابئين الذين ذكرهم الله فى القرآن ، ولم يأتوا بعد ، وتولى من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من أهل الكتاب وإن لم يدخلوا فى دينه ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون » .

والغريب فى الأمر أن القارىء الكريم اذا رجع إلى مصادر الإباضية من كتب وأسماء علماء منذ أوائل القرن الثانى الهجرى الى هذا العصر فإنه لن يجد عند الإباضية هذا الإمام الذى سماه أبو الحسن الأشعرى — يزيد بن أنيسة — ولا يجد عندهم ذكرا لفرقته ولا لآرائه ، بل إنهم يحكمون على من يدين بمثل تلك المقالات بأنه مشرك خارج عن الملة ، ومن كان مشركا خارجا عن ملة الإسلام ، لا يمكن أن يحسب فى فرق المسلمين . ولست أدرى كيف ساغ لأبى الحسن أن يزيد — هذا اليزيد — الى الإباضية ، وأن يحشر معهم فرقته . هذا ان وجد حقا ووجدت له فرقة — وكيف ساغ له أن يحسبها فى فرق الإسلام ، وينسبها الى إحدى طوائفه وهو نفسه يحكم عليها بالخروج من الإسلام حين يقول فى الفقرة السابقة : « فنترك — أى يزيد بن أنيسة — شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ودان بشريعة غيرها » ويضيف أبو الحسن الفرقة الثالثة الى الإباضية فيقول :

« الفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة وخالفو فيه سائر الإباضية . وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا الحارث أيضا لم يحـرث عنـد الإباضية ولم يزرع لا آراء ولا حبوبا ولم يحصد الإباضـية عنه أو عن فرقتـه شيئا • ان كان حقا حـرث فى أى مكان •

ولو أن أبا الحسن حشر هذا الحارث مع المعتزلة لكان أقرب ما دام يقول بقولهم فى القدر ، ومسألة القدر هى أم المسائل فى النقاش الفلسفى الذى جرى بين المذاهب الإسلامية فى وقت مبكر ، وكانت المميز الواضح بين مذاهبهم والمهم الموضوع أنه لا يوجـد لهذا الحارث الذى لم يجد أبو الحسن أبا فجـاء به هكذا يسـوقه حتى أدخله عند الإباضـية وتركه • لا يوجد عند أى الإباضية أى ذكر لهذا الحارث أو رأى أو فرقة أو نسب ، ولا حتى مـرور ضيافة فى مراجـع الإباضية مما استطعت الحصول عليه خالية منه ومن آرائه ومن فرقته فإذا كانت حقيقته وحقيقة آرائه فى الواقع كما هى عند الإباضية فإنه رجـل لا وجود له ولا لفرقته أما آراؤه فهى صـورة فى مخيـلة مشـنع على الإباضية ألقـاها على أبى الحسن فوثق به وأثبتها فى كتابه دون نقد أو تمحيص •

ويستمر أبو الحسن فى تعداد فرق الإباضية فيقول :

« والفرقة الرابعة منهم يقولون بطاعة لا يراد الله بهـا على مذهب أبى الهذيل » ثم يشرح هذه العبـارة فيقول : « معنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله اذا فعـل شيئا أمره الله بـه وان لم يقصـد الله بذلك الفعل ولا أراده به » •

ويبدو أن أبا الحسن لم يجد لهـذه الفرقة إماما ، فلم يذكـر لهـا اماما ، وانما جاء يسـوق أتباعها كما يسـاق القطيع حتى أدخلهم فى حظيرة الإباضية وتركهم • ولو أنه سمى هذه الفرقة بالهذلية • ما دامت تقول بقوله ، لكان لذلك وجـه ، لأنه لم يذكـر لهذه الفرقة قولا غـير القـول السـابق •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى كل حال فهذه فرقة ليس لها امام وليس لها اسم ، وكل ما فى الأمر أنه نسب إليها قولا يناقض مناقضة كاملة ما عند الإباضية فى هـذا الموضـوع ، فكيف تـكون من الإباضية وهى تقول بمـا يناقض رأى الإباضية مناقضة كاملة .

والباحـث إذا تأمـل ما جـاء عن الإباضية فى كتاب « مقـالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى ثم قارنه بما عند الإباضية . سـواء كان ذلك يتعلق بأسماء الأئمـة والعلماء ، أو بأسـماء الفرق . أو بالآراء والمذاهب ، فإنه يخرج بنتيجة غريبة . وهى أن ما أتعب الإمام الكبير به نفسه ، وكتب فيه صفحات طوالا عن الإباضية فيما يظن . لا علاقة لـه ألبتة بالإباضية ، وأن أولئك الأئمة الذين زعمهم أئمة لفرق منهم ، ليسوا هم ولا فرقهم من الإباضية فى قليل ولا كثير ، إذا صح هذا التعبير . أما مقالاتهم وآراؤهم فهى ليست أقرب الى الإباضية منها الى الشافعية أو المالكية أو غيرها من المذاهب الإسلامية .

ويستطيع القارىء الكريم أن يعود الى كتب التاريخ وكتب العقائد التى ألفها الإباضية قبل أبى الحسن الأشعرى وبعده اذا شاء أن يتأكـد ويعرف الحقيقة بنفسـه . فقـد ألف علماء الإباضية وأئمتهم الحقيقيون كثيرا من الكتب فى التفسير والحديث والفقه بجميع فروعه ، وفى التوحيد وعلم الكلام ، وفى أصـول الفقه كتبا مختلفة منها القيم الذى يعتبر من أهم مصادر الثقافة الإسـلامية التى تشع نورا على مختلف العصـور ويعتبر من الذخائر التى تزخر بها المكتبة الإسلامية العامة .

كما ألفوا فى السير والتاريخ والتراجم ، ولا سيما سير أئمة الإباضية وعلمائهم . ولكنه ليس فى شىء من هذه المؤلفات شىء مما ذكره الإمـام الأشعرى عن الإباضية فى هذا الفصـل من كتابه الكبير .

وفى عصر أبى الحسن الأشعرى كان الإباضية وعلماؤهم منتشرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى جميع ما يسمى اليوم بالبلاد العربية : كالحجاز والعراق والشام وجنوب الجزيرة ، ومصر • بل إنهم كانوا يكونون أغلب السكان فى المغربين الإسلاميين الأدنى والأوسط • ويوجد لهم عدد من كبار العلماء — حينئذ — فى كل الحواضر الإسلامية كمكة والمدينة والبصرة وعمان وحضرموت واليمن ومصر وبلدان الشمال الأفريقى •

ومع هذا فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من أئمة الإباضية كجابر بن زيد وجعفر بن السماك العبدى ، وأبى سفيان قنبر ، وصحار العبدى وأمثالهم من أئمتهم فى النصف الثانى من القرن الأول ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من أئمتهم فى النصف الأول من القرن الثانى أمثال أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وضمام بن السائب ، وأبى نوح صالح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والجلند بن مسعود العمانى ، وأبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى وهلال بن عطية الخراسانى — وأضرابهم • ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من علماء النصف الثانى للقرن الثانى أمثال الربيع بن حبيب ، وأبى سفيان محبوب ابن الرحيل ، وأبى صفرة عبد الملك بن صفرة ، وعبد الرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وأبى الحسن الأيدلانى وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الأول للقرن الثالث أمثال أفلح بن عبد الوهاب وعبد الخالق الفزانى ومحكم الهوارى والمهنا بن جيفر ، وموسى بن على ، وأبى عيسى الخراسانى ، وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الثانى من القرن الثالث ، أمثال محمد بن محبوب ، ومحمد بن عباد ، والصلت بن مالك ، وأبى اليقظان بن أفلح ، وأبى منصور الياس وعمروس بن فتح وهود بن محكم ، ولم يذكر شيئا من أقوالهم .

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الأول من القرن الرابع أمثال ابن خزر يغلى بن أيوب ، وأبى القاسم يزيد بن مخلد ، وأبى هارون موسى بن هارون ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم . وقد كان علماء هذه الطبقة والطبقة التى سبقتها معاصرين لأبى الحسن الأشعرى ، لأنه عاش ثلاثين سنة من القرن الرابع فهو معاصر لعلماء النصف الثانى للقرن الثالث وعلماء النصف الأول للقرن الرابع ، ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من هؤلاء الأئمة أو ممن كان معاصرا لهم أو سبقهم من علماء وأئمة الإباضية المعروفين ولم يذكر شيئا من مقالاتهم .

فهو إما أنه لا يعرفهم ولا يعرف شيئا من مقالاتهم ، وإما أنه يعرفهم أو يعرف بعضهم على الأقل ويعرف مقالاتهم ، ولكنه لا يجد فيها شيئا يستدعى النقد والتعليق أو حتى مجرد العرض . فلم يتحدث عنهم وعن مقالاتهم بخير ولا بشر . فترك الإباضية الحقيقيين برجالهم ومقالاتهم ، وألقيت بين يديه مقالات وأسماء لفرق مجهولة عند الإباضية كل الجهل ، وأقوالها تناقض ما عند الإباضية كل المناقضة ، فزعمت المصادر التى استقى منها أن هذه الفرق والمقالات للإباضية باعتبارهم أباضية أو منهم ، والإباضية منها برآء بعداء ليسوا أقرب إليها من أبى الحسن نفسه .

فكيف وقع أبو الحسن فى هذا الخطأ الشنيع ، مع أنه من أوائل من انتبه إلى أسباب الزيف عند كتاب المقالات ومن أوائل من شرح الطرق التى يصل منها الخطأ إلى من يكتبون عن الفرق ومقالاتها ومذاهبها ، ومن أوائل من حذر من الوقوع فيها ؟ !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشنيعات الأشعرى على الإباضية

علمت أيها القـارىء الكريم فى الفصـل السـابق أن من ذكرهم أبو الحسن الأشعرى تحت عنوان الإباضية بأئمتهم وفرقهم ومقالاتهم ليسوا فى الإباضية من قليل ولا كثير ، ونضيف لك فى هـذا الفصل أن التشنيعات التى نسبها إلى الإباضية لا علاقة لها بهم ألبتة ، فإن كانت تلك الشنائع آراء لتلك الفرق التى ذكرها سابقا ، وأن تلك الفرق كانت موجـودة بالفعل ، فإن تلك الفرق أبعد الناس عن الإباضية وأن بعض مقالاتها كاف عند الإباضية للحكم على أصحابها بالشرك •

وإن شئت المزيد من ذلك فاستمع إليه يورد أقـوالا عن الإباضية تنسب إليهم قصد التشنيع عليهم •

يقول أبو الحسن :

« وقالوا من سرق خمسة دراهم فصاعدا قطع » •

« وقال بعضهم فيمن دخل فى دين المسلمين وجبت عليه الشرائع والأحكام ، وقف على ذلك أو لم يقف ، سمعه أو لم يسمعه » •

« وقال بعضهم : ليس على الناس المشى إلى المصـلاة والركوب إلى الحج ولا شىء من أسباب الطـاعات ، التى يتوصل بهـا إليهـا ، إنما عليهم فعلها فقط » •

« وقالوا جميعهم : إن الواجب أن يستتيبوا من خالفهم فى تنزيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل ، كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله » .

« وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتل » .

« وقال بعضهم : ليس من جحد الله وأنكره مشركا حتى يجعل معه إلها غيره » .

« وقال بعضهم : بتحليل الأشربة التى يسكر كثيرها إذا لم تكن الخمر بعينها » .

هذه أمثلة من الأقوال التى نسبها أبو الحسن إلى الإباضية وظاهر أن القصد من نسبة هذه الأقوال إليهم إنما هو التشنيع عليهم وتكريههم إلى بقية فرق المسلمين وتأمل قوله « وقالوا جميعهم إن الواجب أن يستتابوا من خالفهم فى تنزيل أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل » .

والتناقض واضح بين الأقوال التى ينسبها أبو الحسن إلى الإباضية أو الى بعض فرق الإباضية حسب زعمه . وقارن إن شئت الفقرة السابقة بما يقوله عن الإباضية (١) .ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين حلال مناكحتهم وموارثتهم » ويقول بعد أسطر :

---

(١) يزعم هنا انهم يوجبون استتابة مخالفيهم فمن لم يتبل قتل ثم يقول فى نفس الكتاب انهم يجوزون مناكحة مخالفيهم وموارثتهم وشهادتهم على اوليائهم وحرموا دماءهم . فكيف تقبل شهادة من يجوز قتله وكيف تربط اواصر مصاهرة مع من ترى وجوب قتله : انه التناقض الذى لا يخفى وهو كلام يسقط نفسه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وحرام قتلهم وسبيهم » التناقض هنا واضح وقصد التشنيع ممن نسب إليهم ذلك واضح • ولست أتهم أبا الحسن كما قلت غير مرة ، ولكنى أتهم المصادر التى استقى منها والمراجع التى اعتمد عليها ، سواء كانت مصادر مكتوبة أو كانت مصادر متحدثة • ونحن نعتب على أبى الحسن وهو الذى يقرر فى أول كتابه أن كثيرا ممن يكتب عن مقالات الفرق يتعرض للكذب ، وعدم التحرى ، وعدم التقصى فى البحث ، والغلط فى إيراد الأخبار — أن يقع فريسة سهلة رغم معرفته لذلك — وأن يقع فيما وقع فيه غيره ممن خفيت عليهم دسائس السياسة الماكرة ومكائد العصبية الفاجرة ، وأكاذيب الغلاة والمتنطعين • وهم موجودون فى كل مذهب وفرقة بلا استثناء •

ومما يدخل فى هذا الباب من تلفيق الأخبار والقصص ، للتشنيع على الفرق المخالفة ما أورده أبو الحسن فى كتابه السابق فقد قال : فى ص ١٧٥ ما يلى :

« وكان رجل من الإباضية يقال له ابراهيم ، أفتى بأن بيع الإماء من مخالفيهم جائز ، فبرىء منه رجل منهم يقال له ميمون ، وممن استحل ذلك ، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا تحريم ، وكتبوا يستفتون العلماء منهم فى ذلك ، فأفتوا بأن بيعهن حلال ، وهبتهن فى دار التقية حلال ، ويستتاب أهل الوقف من وقفهم فى ولاية ابراهيم ومن أجاز ذلك ، وأن يستتاب ميمون من قوله ، وأن يبرأ من امرأة كانت معهم ، كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى ، ولن يستتاب ابراهيم فى عذره لأهل الوقف فى جحدهم الولاية عنه — وهو مسلم يظهر إسلامه — وأن يستتاب أهل الوقف فى جحدهم البراءة عن ميمون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ وهو كافر يظهر كفره ـ فأما الذين وقفـوا ولم يتوبوا من الوقف وثبتوا عليه • فسموا الواقفة ، وبرئت الخوارج منهم ، وثبت ابراهيم على رأيه فى التحليل لبيع الإماء من مخالفيهم وتاب ميمون » •

ولم تنته القصة عند هذا الحـد ، وإنما استطرد الإمام ثم عـاد بعد سبعة أسطر فقال :

« ثم رجع بنا القول إلى الإخبـار عن الاختـلاف فى أمر المرأة ، فافترقت فرقة فى الواقفة وهم الضحاكية ، فأجازوا أن يزوجـوا المرأة المسلمة عندهم من كفار قومهم فى دار التقية ، كما يسع الرجـل منهم أن يتزوج المرأة الكافرة من قومه فى دار التقية ، فأما فى دار العلانية ـ وقد جازحكمهم فيها ـ فإنهم لا يستحلون ذلك فيها •

ومن الضحاكية فرقة وقفت فلم تبرأ ممن فعـله ، وقالوا لا نعطى هذه المرأة المتزوجة من كفار قومنا شيئا من حقـوق المسلمين • ولا نصلى عليها إن ماتت ، ونقف فيها ، ومنهم من برىء منها •

واختلفوا فى أصحاب الحـدود فمنهم من برىء منهم ، ومنهم من تولاهم ، ومنهم من وقف واختلف هؤلاء فى أهل دار الكفر عندهم • فمنهم من قال : هم عندنا كفار ، إلا من عرفنا إيمانه بعينه ، ومنهم من قال هم أهل دار خلط فلا نتولى إلا من عرفنـا فيه إسـلاما • ونقف فيمن لا نعرف إسلامه ، وتولى بعض هؤلاء بعضـا على اختلافهم • وقالوا : الولاية تجمعنا ، فسموا أصحاب النساء ، وسموا من خالفهم من الواقفة أصحاب المراة • وصارت الواقفة فرقتين ، فرقة تولوا الناكحة ، وفرقة ينتسبون إلى عبد الجبار بن سليمان ، وهـم الذين يتبرأون من المراة الناكحة من كفار قومهم •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا خبر عبد الجبار الذى خطب إلى ثعلبة ابنته ، فسأل ثعلبة أن بمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسل الخاطب إلى أم الجارية مع إمرأة يقال لها أم سعيد يسأل هل بلغت ابنتهم أم لا ؟ وقال إن كانت بلغت وأقرت بالإسلام لم أبال ما أمهرها ! فلما بلغتها أم سعيد ذلك قالت : ابنتى مسلمة بلغت أم لم تبلغ ، ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت ، فرد مرة أخرى ذلك عليها ، ودخل ثعلبة على ذلك الحال ، فسمع تنازعهما ، فنهاهما عنه ، ثم دخل عبد الكريم ابن عجرد وهما على تلك الحال • فأخبره ثعلبة الخبر ، فزعم عبد الكريم أنه يجب دعاؤها إذا بلغت ، وتجب البراءة منها حتى تدعى إلى الإسلام ، فرد عليه ثعلبة ذلك وقال : لا ! بل تثبت على ولايتها فإن لم تدع لم تعرف الإسلام ، فبرىء بعضهم من بعض على ذلك » •

هكذا انتهت هذه القصة التى أخذت جهدا غير قليل من الإمام الكبير ، وحيزا فسيحا من كتابه القيم ، ووقتا ثمينا من أوقات القارىء وواضح أنه ليس لهذه القصة أية قيمة ، اللهم الا إذا كانت للتسلية والضحك ، أو عند من يجمع مشاكل الناس اليومية للتهويل والتشنيع •

يضاف إلى ذلك أن جميع أبطال القصة ناس مجهولون لا يعرف عنهم شيء • إن أى كاتب يستطيع أن يجد عشرات القصص من هذا النوع فى الأحداث اليومية التى تجرى بين الناس ، فيختلفون ويتخاصمون ، ويعلن بعضهم بعضا ، ويدعو عليه بالثبور وعظائم الأمور وقد يتضاربون فتكون نهاية مشاكلهم عند المحاكم أو حتى فى السجون • وأن كثيرا مما نراه ونسمعه فى كل المجتمعات قد تكون أحداثه أكثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجبا وإثارة من هذه القصة التافهة التى تمنيت بحق — لو أن الإمـام الكبير أبا الحسن أكرم كتابه ، ونزه قلمه عن الخوض فى هذه الترهات ، وربأ بنفسـه عن الاندماج فى هذه السفاسف المفتعلات ، والتى تنـال من كرامة قائليها أكثر مما تنال من كرامة من تنسب اليهم •

ولو أن أبا الحسن لم ينسب هـذه القصة إلى الإباضية لمـا كان لى بهـا شأن فى الوقت الحاضر • أما وقد نسبها إلى الإباضية فأرانى — وأنا أكتب عنهم فى هذا الموضوع — مضطرا أن أوضح للقارىء الكريم فيهـا بعض النقط •

١ — وردت فى القصة أسماء عـدد من الأشخاص هم : ابراهيم ، ميمون ، عبد الجبار ، سليمان ، ثعلبة ، عبد الكريم بن عجرد ، أم سعيد • كمـا وردت فيها أوصاف لعدة أشخاص هم : العلمـاء ، الإماء ، امرأة ، امرأة ثعلبة إلخ •

وهذه الشخصيات كلهـا مجهولة ، سـواء ما ذكر منهـا بالإسم أو بالوصف ، ولا يعرف عنها شىء ، فما قيمة هذه المشاجرة التى تقـع بين أفراد مجهولين فى تحقيق علمى يراد منـه إثبات آراء فى العقائد ، وتصنيف فرق الأمة على أساس تلك الآراء ، إن أبا الحسن لم يذكـر شيئا عن تلك الأسماء المجردة ، فهل يكفى هـذا ليكونوا فى الإباضية ؟ ولمـاذا لم يحسبوا من المالكية أو المعتزلة أو الشيعة أو غيرهم من الفرق والمذاهب الأخرى ، ثم إذا فرض أنهم كانوا حقا من أتبـاع الإباضية أو غير الإباضية من المذاهب فهل يكفى هذا الموقف فى الشجار والملاعنة لأن يكون كل فرد من المتشاجرين صاحب رأى ورئيس فرقة ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — إنك واجد فى جميع الطوائف الإسلامية مشاجرات واختلافات من هـذا النوع فى كل عصر ، بل ربما تجد أحـدً منها وأوسع مـدى ، فما الذى رفع قيمة هذه المشاجرة حتى اهتم بها الإمـام أبو الحسن ، وأثبتها فى كتابه ؟

٣ — إن البحث عن أسماء مجـردة هكذا كإبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، فى أحداث التاريخ بحث لا طائل تحته ولا يوصـل منـه إلى نتيجة ، ومع ذلك فقد حاولت أن أتقصى كل أسماء ابراهيم ، وسليمان ، وميمـون ، وثعلبة ، وعبد الكريم ، لعلى أجـد ما يربط بين أحـد تلك الأسماء وبعض أحداث القصـة السابقة — فيما بين يدى من مصـادر التاريخ الإباضى وكتب مقـالاتهم — فلم أتمكن من تحقيق هذه النزوة الحمقاء التى أخذت منى جهدا غير قليل فى البحث والتنقيب • وحاولت أن أجد قصة عند الإباضية تشبه من قريب أو بعيد أحـداث هذه القصة ولو اختلفت فيهـا أسماء الأبطـال فلم أوفق فى ذلك • وعلمت فى كتب المقالات أن بعض هذه الأسماء تنسب إليهم فرق مستقلة تحت العنوان الكبير (الخـوارج) ويطلق عليهـا أسماء منسـوبة إليهم كالثعالبة ، والعجاردة ، والميمونية •

ومن المؤسف أن الإباضية لا يعرفون شيئا لا تاريخيا ، ولا دينيـا — عن قصة تنسب إليهم كادت تشغل البوليس الدولى ، مما يـدل على أنهم فى الواقع لم يحضروا ذلك النزاع الواقع على بيع الإماء ، ولا النزاع الواقـع فى خطبة بنت ثعلبة ، ولـم يقفوا فى تلك السـوق الحامية ، ولا شهدوا ذلك العرس الذى نتج عنـه سـيل من الشتائم ، وتبـادل اللعنات • فنسبة هذه القصة إلى الإباضية من أعجب العجب — ، ونسبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبطالها إلى أئمة الإباضـــية أو علمائهـــم ، من أكاذيب التاريخ التى لم تتستر حتى بقليل من الحياء ، وإن جازت حتى على كبار الأئمة أمثـــال أبى الحسن •

ولا شك أن مخترع هذه القصـــة إنما أراد أن يكثر من عدد الفرق الفرعية المنسوبة إلى الإباضية حتى يظهرهم بمظهر المتشددين الذين يتنازعون لأتفه الأســـباب ، فيتحالفون ويفترقون إنسياقا وراء العواطف ودوافع الغضب أكثر مما هو انسياقا وراء دوافع العقيدة والدين •

وقد استطاع أن يخترع هذه القصـــة وأن يولد من أحـــداثها عددا من الفرق أطلق عليها أسماء : الضحاكية ، أصحاب النســـاء • أصحاب المرأة • الواقفة •

ومفهوم بالبداهة أن شخصا ما أراد التشنيع على الإباضية فاخترع هذه القصة ونسجها على المنوال ثم وجـــد أبا الحسن الأشـــعرى وهـــو يهتم بدراسة الفرق وأقوالها وآرائها فألقاها إليه فأثبتها أبو الحسن دون تمحيص أو تحقيق • وليت أبا الحسن حين كتب هذا نسبه إلى مصدره حتى تبرأ ساحة الإمام العظيم من أية مسئولية ، وتكون العهد راجعة إلى أصحابها •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقالات الإباضية عند الأشعرى

لقد علم القـــارىء الكريم أن أبا الحسن الأشعرى كان يحسب أن الإباضية يتكونون من الفرق السابقة التى ناقشناه فيها ، والتى أثبتنـــا للقارىء الكريم بأنه لا صلة بينها وبين الإباضية • وفى حـــديثه عن تلك الفرق كان يعرض — حسب ظنه — مقالات الإباضية ونحـــن فى هـــذا الفصل سوف نحاول أن نكشف أن أبا الحسن فى عرضه لتلك المقالات كان أيضا عرضة للانسياق مع قوم غلب عليهم حب التشنيع ، فالتجأوا إلى الغموض والإبهام حينا ، وإلى عبارات موهمة لمعـــان غير محدودة أو غير مقصودة حينا آخر ، كما تساهلوا فى إضافة أقوال أو تغييرها لإثبـــات ما يريدون •

يقول أبو الحسن فى كتابه مقالات الإسلاميين (١) وهو يتحـــدث عن الإباضية : « وجمهور الإباضية يتولى المحكمة كلها إلا من خـــرج ، ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين ، حـــلال مناكحتهم ومواريثهم • حـــلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك ، وحرام قتلهم وسبيهم فى السر ، إلا من دعا إلى الشرك فى دار التقية ودان به ، وزعموا أن الدار يعنون دار مخالفيهم — دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر يعنى عندهم •

وحكى عنهم أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وحرموا الاستعراض إذا خرجوا : وحرموا دمـــاء مخالفيهم حتى يدء—وهم إلى

---

(١) مقالات الاسلاميين الجزء الأول طبع مكتبة النهضة ص ١٧٠ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دينهم ، وقالوا إن كل طاعة إيمان ودين ، وإن درتكبى الكبائر موحدون وليسوا بمؤمنين » •

ويقول فى موضع آخـر من الكتاب :

والإباضية يقولون إن جميع ما افترض اللـه سبحانه على خلقـه إيمان ، وأن كل كبيرة هى كفر نعمة لا كفر شرك ، وأن مرتكبى الكبائر فى النار خالدون مخلدون فيها •

ووقف كثير من الإباضية فى إيلام أطفـال المشركين فى الآخـرة ، فجوزوا أن يؤلمهم الله سبحانه فى الآخـرة على غير طريق الانتقـام ، وجوزوا أن يدخلهم الجنة تفضـلا • ومنهم من قال : إن الله سبحانه يؤلمهم على طريق الإيجـاب ، لا على طريق التجويز » •

ويقول فى صفحة ١٨٦ من نفس الكتاب :

« ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم عبد اللـه بن يزيد ، ومحمـد بن حرب ، ويحيى بن كامل وهؤلاء إباضية » •

ويقول فى صفحة ١٨٩ من نفس الكتاب ما يلى :

« إلا أن الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجـور ، ومنهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليـه بالسيف أو بغـيره ••

هـذا أهـم ما قاله أبو الحسن الأشعرى عن الإباضية ومقالاتهم بالإضافة إلى التشنيعات السابقة التى نقلت للقـارىء الكريم أكثرهـا فيما مضى • ولعـله من المهـم أن أوضـح للقارىء الكريم فى هـذا الفصل أن جميع الأسماء التى وردت فى الفصل الذى كتبه أبو الحسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن الإباضية لا علاقة لها بالإباضية فيما عدا اسمين هما عبد الله بن إباض وهو الإمام الذى ينسب إليه المذهب وعبد الله بن يزيد الفزارى كان من الإباضية وخالفهم فى بعض المسائل فانفصل عنهم وانتظم فى فرقة التكار وقد ذكر ابن النديم عددا من الكتب المنسوبة إليه منها :

كتاب التوحيد ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب الرد على الرافضة ، كتاب الاستطاعة • ولا أعلم أن شيئا من هذه الكتب قد بقى فى مكان ، أما أصحاب هذه الفرقة فلم يبق لهم وجـود فيما أعلم •

أما محمد بن حرب ، ويحيى بن كامل اللذان نص أبو الحسن أنهما من متكلمى الإباضية ومؤلفيهم كأنما كان يشك فى السابقين وهـو على يقين فى هؤلاء ، فإنه لا يوجـد لهما أى ذكر عند الإباضية فيما اطلعت عليه ، ويؤسفنى أن أرد على الإمام الكبير نصه هذا • وله أن يحشرهما فى أية فرقة أخرى أما عند الإباضية فليس لهما مكان إنه لا يوجـد لهما أى أثر فى المكتبة الإباضية الواسعة التى حرصت أن تحتفظ بتراثها منذ القرن الأول فحفظت فتـاوى ومراسـلات الأئمة جابر وأبى عبيـدة وغيرهم وحتى ما ضاع منها حفظت أسماؤها وبعض ما جاء فيها كديوان جابر وتفسير عبد الرحمن بن رستم وتفسير أبى يعقوب الوارجلانى •

إن كتب الإباضية ، التاريخية منها والشرعية لم تذكر لنا شيئا عن هذين الرجلين ولا عن مقالاتهما أو مؤلفاتهما كما لم تذكر ذلك عمن سبق أن نسبة أبو الحسن إلى الإباضية • وأنا حين أؤكد للقـارىء الكريم هذا النفى فإنما أؤكده فيما وصلت إليه يدى من كتب الإباضية المطـولة منها والمختصرة ، ولا أدعى استقصاءها فإن ذلك من المستحيل •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يقول قائل ربما ضاعت هذه الكتب فى زحمة التاريخ وهذا شىء مألوف • ولا شك أن ضياع الكتب شىء لا ينكر • ولكن الكتاب إذا ألف وعرفه الناس فلابد أن ينقل عنه أو على الأقل أن يذكر اسمه ويذكر مؤلفه • سواء أخذت منه آراء أو أقوال أو لم تؤخذ • وهذا ما لم يحدث بالنسبة لهؤلاء • فلم تذكر أسماؤهم ولا كتبهم ولا بعض آرائهم ما يجعلنا نجزم بأنهم لم يكونوا من الإباضية مطلقا بل نجزم أنهم غير معروفين عند الإباضية وحتى الذين ذكروهم فى تعداد الفرق كالقطب وعبد الكافى فإنما اعتمد على غير مصادر الإباضية •

ولا شك أن الإباضية من أول المذاهب التى اهتمت بالتأليف وحرصت على الاحتفاظ بآثار الأئمة وتاريخهم وتراجمهم ، وليس فيما اطلعت عليه أى ذكر لهؤلاء الناس ، ومعنى ذلك أنهم من غير الإباضية ونسبوا إليهم خطأ • وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أولا فى أن أبا الحسن لا يعرف الإباضية فى الحقيقة وأن ما كتبه عنهم إنما نسب إليهم خطأ أو جهلا أو قصدا للتشنيع • أما المقالات التى نسبها إلى الإباضية فى عمومها والتى نقلت لك بعضها فى أول هذا الفصل ، فهى مزيج مما يقره الإباضية ويقولون به ، ومما ينكرونه ويردونه ، ومما يحكمون على من يقول به بالردة والكفر ، وواضح من هذا أن ما جاء موافقا لمقالاتهم وعقائدهم فإنما جاء عن طريق الصدفة ، لا عن طريق الدراسة والمعرفة •

ويهمنى فى ختام هذا الفصل أن أؤكد من جديد للقارىء الكريم أننى أضع الإمام أبا الحسن فوق الشبهات ، وإنما انجر اليه الخطأ عن طريق من وثق فيه ونقل عنه • فى عصر كثرت فيه النزعات •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونستخلص من مناقشاتنا لأبى الحسن فى الفصول السابقة ما يلى :

١ — إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الإباضية ومن مؤلفيهم ومتكلميهم لا وجود لهم عند الإباضية •

٢ — الإباضية لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرجال ولا عن فرقهم •

٣ — الإباضية لا يعرفون أيــة فرقة من تلك الفرق التى نسـبها أبو الحسن إليهم ولا يقولون بأكثر أقوالها •

٤ — المقالات التى نسبها — هكذا على العمــوم — إلى الإباضية أو إلى جمهورهم هى خليط مما يذهب إليــه الإباضية • ومما يردونه ، ومما يحكمون بالشرك على معتنقيه •

٥ — بدأ الإباضية بالفعــل فى تأليف الكتب منذ القــرن الثــانى الهجرى • وتسلسلت الكتب وتسلسل العلماء والأئمــة إلى اليوم وليس فى هذه السلاسل شىء مما نسبه إليهم أبو الحسن •

٦ — عاش أبو الحسن الأشعرى فى القرن الثالث الهجرى وعاش ثلاثين سنة فى القرن الرابع • وقد كان للإباضية إمامات بالمشرق وإمامات بالمغرب واشتهر لهم أئمة وعلماء ومفسرون ومحدثون ومتكلمون ، وفقهــاء فى أكثر العواصم الإسلامية حينئذ ولكنه لم يذكر أحــدا منهم ولم يشر إلى كتاب من كتبهم •

٧ — الفترة التى عاش فيها أبو الحسن كانت فترة ازدهار علمى للإباضية فى المشرق والمغرب ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يشر إلى أحــد من معاصريه من علماء الإباضية •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومعنى هذا كله أن الإباضية الذين كتب عنهم أبو الحسن لا وجود لهم فى الواقع ، وان الإباضية الموجودين فى الواقع والذين كانوا يعيشون كما يعيش سائر الناس لا وجود لهم فيما كتبه عنهم أبو الحسن . أى أن أبا الحسن لم يكتب عن الإباضيين الحقيقيين .

ومنذ ألف أبو الحسن الأشعرى كتابه « مقالات الإسلاميين » ، أصبح مصدرا يستقى منه الكتاب ، ومرجعا يعود اليه المؤلفون ، فينقلون ما فيه من أخطاء وصواب ، وحق وباطل ، تارة بالنص وتارة بالمعنى ، وتارة يشيرون إليه وأحيانا يغفلون عن الإشارة .

ولقائل أن يقول إن هناك مؤلفين آخرين كتبوا فى الموضوع ، فى عصر أبى الحسن من قبله أيضا وهذا صحيح . غير أننى أستطيع أن أزعم أن شهرة أبى الحسن ومركزه العلمى ، ومواقفه فى مجالات المحاجة والجدل جعلته يطغى على الآخرين جميعا . فأصبح أهم مرجع وأوثق حجة عند المؤلفين الذين جاءوا من بعده .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذا الفصل إلا أن أبدى ملاحظة ربما تساعد على تبرير ما بلغ إلى الإمام الأشعرى كما بلغه وذلك أنه ربما كان من طلاب جابر أو طلاب أبى عبيدة من عرف بتلقيه العلم عن أحدهما واشتهر بذلك وظنه الناس إباضيا بينما هو لم يكن من الإباضية أو أنه قال ببعض تلك المقالات فأعرض عنه الإباضية ولم يحسبوه منهم ولم يذكروه فى سيرهم وتوهمه غيرهم أنه منهم رغم ما يقول به .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البغدادى والإباضية

بعد أبى الحسن الأشعرى بنحو قرن تقريبا جاء مؤلف آخـر اهتم بالحديث عن الفرق والمقالات الإسلامية • هذا المؤلف هو :

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى • وقد اشتهر بنسبته الأخـيرة بين المؤلفـين •

كتب البغـدادى عن الإباضية كمـا كتب عن غـيرهم من الفِرَق الإسـلامية فى كتابه — الفرق بين الفِرَق — الـذى حققه الأسـتاذ : محمد محيى الدين عبد الحميد وعلق عليه ونشره •

إن القارىء بمجرد البدء فى قراءة مقدمة كتاب البغدادى (الفرق بين الفِرَق) يحس كأنه داخل فى معمعة حامية الوطيس وكأنه يرافق محاربا شديد المراس قد دجج نفسـه بجميع أنواع الأسلحة استعدادا لدخـول معركة ينبغى له أن يقضى فيها على عدد من الخصوم •

أو كأنه يقف إلى جانب شخص وضعه الله سبحانه وتعالى فى طريق الناس يوم الحساب • وأعطاه صلاحية التحكم فى مصائرهم ، فهو يقف مزهوا يعترض طريق المحشورين • وكلما مرت به طائفة وجههم حسب رأيه فيهم حيث يريد ! أو صاح : أيتها الطـائفة أنتم من أهل السـنة مغفور لكم ، اسلكوا هذا الطريق إلى الجنـة • فإذا جاءت طائفة أخرى صاح بهم أنتم من أهل الأهـواء اذهبوا مع هذه الطريق إلى الجحيم ، وتبدو له طائفة مقبلة فيصيح بها بأعلى صوته أنتم يا من تسيرون هنالك إنكم معتزلة فأنتم فرقة ضالة ادخلوا النار • أما أنتم أيتها الفرقة التعسة فقد قيل إنكم خرجتم من الإسلام فادخلوا النار وبئس القرار •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واذا شئت أن تتضح لك هذه الصورة فما عليك أيها القارىء الكريم إلا أن تقرأ كتاب (الفرق بين الفـرق) وإذا شئت أن أضـع بين يديك نموذجا فلا بأس وها أنا أنقل لك فقرات مما قاله فى مقـدمة كتابه (١) السابق الذكر بأسلوبه القوى البليغ :

« سألتم أسعدكم الله بمطلوبكم — شرح معنى الخبر المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم فى افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة ، منهـا واحدة ناجية ، تصير إلى جنة عالية ، وبواقيها عادية تصير إلى الهاوية ، والنـار الحامية ، وطلبتم الفرق بين الفرقة الناجية ، التى لا تزل بهـا القدم ، ولا تزول عنها النعم ، وبين فرق الضـلال ، الذين يرون ظـلام الظلم نورا ، واعتقاد الحـق ثبورا وسيصلون سعيرا ولا يجـدون من دون الله نصيرا ، فرأيت إسعافكم بمطلوبكم من الواجب فى إبانة الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وتمييزها من الأهواء المنكوسـة ، والآراء المعكوسـة » .

وفى الصفحة الرابعة من الكتاب ذكر أن كتابه يشتمل على خمسـة أبـواب :

الأول : فى بيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة ثلاثا وسـبعين فرقـة .

الثانى : فى بيان فرق الأمة على الجملة ومن ليست منهـا على الجمـلة .

الثالث : فى بيان فضائح كل فرقة من فرق الأهواء الضالة .

---

(١) الفرق بين الفرق صفحة « ٣ » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرابع : فى بيان الفرق التى انتسبت إلى الإسلام وليست منها •

الخامس : فى بيان الفرقة الناجية وتحقيق نجاتها ، وبيان محاسن دين الإسلام •

وهكذا استطاع المؤلف فى إيجاز أن يقسم الناس ثلاثة أقسام قسم خارج عن الأمة الإسلامية فلا حديث له معه وقسم هو أهل الأهـواء وفى هذا القسم ألف الكتاب ليكشف عن فضائحهم أما القسم الثالث فهم الفرقة الناجية •

ويقول المؤلف فى الفصـل الأول من نفس الكتاب صفحة ١٣ بعـد أن ناقش معنى كلمة أمة الإسلام وعلى من تدل — ما يلى :

من كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضـة الإمامية ، أو الزيدية ، أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية ، أو المجسمة فهو من الأمة فى بعض الأحكام ، وهو فى جـواز دفنـه فى مقابر المسلمين وفى ألا يمنع حظه فى الفىء والغنيمة إذا غزا مع المسلمين ، وفى ألا يمنع من الصـلاة فى المساجد •

وليس من الأمة فى أحكام سـواها ، وذلك وأنه لا تجـوز الصـلاة عليه ولا خلفه ، ولا تحـل ذبيحته ، ولا نكاحه لامرأة سنية ، ولا يحـل للسنى أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم •

ولا شك أن القارىء الكريم عندما يقرأ مقدمة الكتاب يتضح لديه أن المؤلف قد قرر أن يقسم الأمة إلى أقسام ثلاثة : قسم حكم بخروجهم من الملة رغم انتسـابهم إلى الإسـلام ، وقسم ما أوردهـم إلا لذكر فضائحهم والتشنيع عليهـم وتلمس أخطائهم ، وإظهار ما به ضـلوا فى نظـره •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم حكم على القسمين بالضلال وقذف بهم جميعا فى جهنم •

أما القسم الثالث فقد حكم عليهم بالسعادة مسبقا أيضـــا لأنهم فى نظره من أهل السنة على طريقة الشاعر الذى يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمـــذان ادخلوا بسلام

هكذا على العموم دون مراجعة •

وليته حين تلمس أخطاء تلك الفرق التى عزلها عن السنة وفتش عن فضائحهم رجع إلى مصادرهم ولم يأخذها من مصادر خصومهم — إن صح هذا التعبير — وهو ولا شك واجـــد ما يتشبث به إن كان لا يهمه إلا أن يدفع بتلك الفرق اليائسة الى النار •

وقد كتب البغدادى عن الإباضية فيمن كتب فى الفرق ومن المؤسف ان هذا المؤلف أيضا لم يهتم مطلقا بأن يتصـــل بأئمة الإباضية الحقيقيين وعلمائهم ولا بأن يطلع على عقائدهم ومقالاتهم فى كتبهم • وإنما رجـــع إلى ما كتبه وقاله عنهم غيرهم ، ويبدو أنه اعتمد على أبو الحسن الأشعرى كثيرا فنقل ما قاله عنهم تارة بنفس العبارة ، وتارة بتصرف قليل • على أنه لم يذكر أنه نقل عنه أو اعتمد عليه •

يقول فى كتابه الفَرْق بين الفِرَق ص ١٠٣ ما يلى :

« أجمعت الإباضية على القول بإمامة عبد الله بن إباض ، وافترقت فيما بينها فرقا ، يجمعها القول بأن كفار هـــذه الأمة — يعنون مخالفيهم من هـــذه الأمة — برآء من الشرك والإيمـــان • وأنهم ليســـوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وزعمـــوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنهم فى ذلك محاربون لله ولرسـوله لا يدينـون دين الحق ، وقالـوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذى استحلوه الخيل والسلاح ، فأما الذهب والفضـة فانهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة .

ثم افترقت الإباضية فيما بينها أربع فرق وهى : الحفصية والحارثية واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها » .

بعد هذا قال إن اليزيدية غـلاة وأنه سـوف يعـود إليهم فيذكر مقالاتهم عنـدما يتحـدث عن الغلاة وتحـدث عن الحفصية والحارثية وأصحاب طاعة لا يراد الله بها فأوردو عنهـا ما أورده أبو الحسن ثم قال فى نفس الكتاب صفحة ١٠٦ ما يلى .

« وزعمت الإباضية كلها أن دار مخالفيهم من أهل مكة دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى عندهم » .

ثم ذكر ثلاثة أقوال فى النفاق (١) نسبها إليهم وبعد ذلك قال :

بعد الجملة التى حكيناها عنهم شذوذا فى الأقوال انفردوا بها .

منها أن فريقا منهم زعموا أن لا حجة لله تعالى على الخـلائق فى التوحيد وغيره إلا بالخبر وما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيماء .

ومنها أن قوما منهم قالوا كل من دخل فى دين الإسلام وجبت عليه الشرائع والأحكام ، سمعها أو عرفها أو لم يسمعها أو لم يعرفها .

---

(١) راجع ان شئت هذا الموضوع فى الفصل مع عبد القادر شيبة الحمد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنها : أن قوما منهم قالوا بجواز أن يبعث الله تعالى إلى خلقه رسولا بلا دليل يدل على صدقه •

ومنهم : أن قوما منهم قالوا : من ورد عليه الخبر بأن الله تعالى قد حرم الخمر أو أن القبلة قد حولت فعليه أن يعلم أن الذى أخبره به مؤمن أو كافر •

وعليه أن يعلم ذلك بالخبر ، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر ،

ومنها : قول بعضهم ليس على الناس المشى إلى الصلاة ، ولا الركوب والمسير إلى الحج ولا شىء من الأسباب التى يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها دون أسبابها الموصلة إليها •

ومنها : قولهم جميعاً بوجوب استتابة مخالفيهم فى تنزيل أو تأويل ، فان تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله •

وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب ، فان تاب ، وإلا قتل •

وقالوا : إن العالم يفنى كله إذا أفنى الله أهل التكليف ولا يجوز إلا ذلك لأنه إنما خلقه لهم •

وأجازت الإباضية وقوع حكمين مختلفين فى شىء أو حد فى وجهين ، كمن دخل زرعا بغير إذن مالكه فإن الله قد نهاه عن الخروج منه إذا كان خروجه منه مفسداً للزرع ، وقد أمره به •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقالوا : لا يتبع المدبر فى الحرب إذا كان من أهل القبلة موحدا ، ولا تقتل منهم امرأة ولا ذرية ، وأباحوا قتل المشبهه واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذراريهم وقالوا : إن هذا كما فعل أبو بكر بأهل الردة » •

وبعد هذا يعيد قصة بيع الإماء وسوقهن الحامية التى نقلتها لك عن أبى الحسن الأشعرى • ولعل القارىء الكريم يدرك بعد قراءة ما سبق أن البغدادى قد اعتمد كل الاعتماد على الأشعرى ورغم حرصه على التصرف القليل فإن عبارة الأشعرى بحروفها كثيراً ما تطل من هنا أو هناك •

والذى يدعو إلى التأمل هو أن البغدادى قد اعتبر الإباضية من الخوارج •

وأنهم لذلك فرقة ضالة ويجب أن يقال عنها فضائح ويلتمس لها شنائع وذهب يورد تلك لفضائح أو الشنائع حيناً بدعوى أنها مقالة الإباضية جميعاً وحينا آخر بدعوى أنها قول بعضهم أو قوم منهم •

إن البغدادى كان يعيش فى القرنين الرابع والخامس ، وفى هذا العصر كان الإباضية قد عرفوا فى أغلب البلاد الإسلامية من خراسان إلى الأندلس واشتهرت لهم مؤلفات فى أغلب فروع الثقافة الإسلامية — لاسيما علم الكلام — ودونت تواريخهم وسيرهم وعرف علماؤهم وأئمتهم فى طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى أصحاب رسول الله ﷺ • كما أن أكثر المذاهب الإسلامية قد تميز بعضها عن بعض فى أصولها وفروعها ، وآرائها ومقالاتها وأئمتها وعلمائها • ومع ذلك فإن أولئك الذين ذكرهم البغدادى هم أولئك الذين ذكرهم الأشعرى من قبله حاشرين إياهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الإباضية أو الوالإباضية لا يعرفون عنهم شيئا ولم يذكروهم لا فى كتبهم كتبهم ولا فى طبقات علمائهم •

إن البغدادى قد سلك نفس المسلك الذى سلكه من قبله الأشعرى وقد علمت فى الفصول السابقة أن أغلب ما كتبه عن الإباضيـة ونسبه إليهم — لا يمت إليهم بصلة • وأن البغدادى وهو يسلك نفس المسـلك ويعتمد نفس المصادر هو الآخر لا يعرف شيئاً عن الإباضية • وأن كل ما كتبه عنهم سواء كان حقاً أو باطلا فإنما هو تشنيعات وتلفيقات إليه عن ناس يريدون أن يوقدوا نار الفتنة ضد الإباضية ، وأن يجعلـوهم مكروهين من بقية إخوانهم المسلمين فينسبون إليهم عقائد ومقالات يبرأون منها وممن يقول بها ، ويسوقون عنهم أقوالا فى غاية الغموض والإبهام ، لإثارة الرأى العام ضدهم وقد يفسرون بعض الجمل أو الكلمات تفسيرا غير صحيح ولا مقصود عند الإباضية لزرع وهم فى نفوس الآخرين • ولا شك أن أصابع السياسة الماكرة وراء كل ذلك وأن هؤلاء العلماء الذين يكتبون إنما تلقوا معلوماتهم عن مصادر مستغلة أو مستغفلة مع العلم أن لديهم الاستعداد الكافى لتلقى وتصديق كل ما يقال لهم عن تلك الفرق التى حكموا عليهـا بالضـلال مسبقاه •

ومن نافلة أن نعيد هنا ما أشرنا إليه سابقاً من أن البغدادى قد زعم كما زعم غيره أن الإباضية من الخوارج وأن هذه الفرقة من الفرق التى لا يجوز للسنى أن يصلى عليها ولا أن يصلى وراءها ، وأنه لا يجوز للسنى حسب زعمه أن يتزوج منها ، ولا أن يأكل من ذبائحها • وقد ردد هـذا الكلام فى مقدمة الكتاب • وفى الفصول الختامية منه أورد هذه الأحكام بشىء من التفصيل وزاد عليها ونسب بعض هذه الأحكام إلى أئمة عظام •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأحسب أنـــه لا دعوة أشـــد إيقاداً لنار الفتنة ، وشقاً لصفوف الأمة ، وتفريقا لوحدة الكلمة وتمزيقا لشمل المسلمين ـــ من هذه الدعوة •

وعلى كل حال فقد طوى التاريخ البغدادى فيما قد طوى كثيرا من تلك الفرق التى كانت تملأ فراغا ضخما فى حياة المسلمين • وبقى كتـــابه يحمل آراء شاذة كما تحمل كثير من الكتب فى كثير من المذهب •

وقد عرفت الأمة المسلمة ، وخبرت وأيقنت ، النتائج والآثار والتى تســـبب عن العصبية المذهبيـــة والجنســـية ، والاتبـــاع الأعمى للخطط السياسية • ورأت رأى العين وذاقت فى مرارة ما لحقها فى جراء ذلك من اضرار •

وهى اليوم تحاول أن تجمع الكلمة ، ترد الشارد وتسكت الـــداعى الى الفتنة • ولكن من حين الى آخر تقوم أقلام هنا أو هناك فتعود الى ما طواه التاريخ فى اخطاء لترسمه من جديد فى بلاهة وسذاجة وغفلة •

يسّر الله للعاملين المخلصين سبيل الوفاق ، وأعانهم على جمع كلمة الأمة التى فرقتها المذاهب الدينية والمطامع السياسية فى العهـــد الماضى وتفرقهم السياسة ، ومناصب التحكم ومذاهب الاقتصاد ، وفتنة الأسماء والألقاب ، والشعارات الكذابة فى العصر الحاضر •

وفى ختام هذا الفصل يهمنى أن أقـــول للقارىء الكريم إن بعض الأقوال التى نسبها الى الإباضية تحمل تكذيبها فى نفسها وهى التى نسبها فيما زعم الى فرقة من الفرق التى ألحقها بالإباضية وكذلك الأقوال التى زعـــم •

أن بعضا من الإباضية أو قوما منهم كان بها فهذه الأقوال المنسوبة الى بعض أو الى قوم لا تحتاج الى تكذيب لأنها هى نفسها لم تستطيع أن تنتهض فتقف وإنما لاذت بجناح من الإباضية وأما ما نسبـه إليهم جميعا فسوف نعود إليه بالنقاش فى آخر الكتاب إن شاء الله مع ما يتحصل لدينا من أقوال غيره فنؤكد ما يقول به الإباضية حقيقة ونؤكد ما لا يقولون به حقيقة ونكشف عما أورد بطـريقة موهمة أو مبهمة والله المستعان •

ابن حزم والإباضية

عاش ابن حزم الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى ، وقد عنى هو الآخـر بالمذاهب الإسلامية وكتب عنها •

ويؤسفنى أن أقول إن العالم الكبير لم يوفق فيما كتب عن الإباضية بل لقد تجنى عليهم فى بعض الأحيان • وكلامه أحيانا — يهدم بعضـه بعضاً ما كما أن بعض دعاويه لا يمكن أن تصدق — مهما حاول الإنسـان أن يجد لها مبررات — والى القارىء الكريم الأمثلة •

يقول فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) صفحة ١٨٨ ما يلى :

« ذكر بعض من جمع مقالات المنتمين الى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم رجل يدعى فريد بن أبى أنيسة — وهو غـير المحـدث المشهور كان يقول : إن فى هذه الأمة شاهدين عليهـا : هو أحـدهما ، والآخر لا يدرى من هو ولا حتى متى هو • ولا يدرى لعله قد كان قبله ، وأن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله الى العرب لا إلينا كما يقول العيسوية فى اليهود ، قال : فإنهم مؤمنـون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولياء الله تعالى وإن ماتوا على هذا العقد ، وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وأن دين الإسلام سينسخ بنبىء من العجم يأتى بدين الصابئين • وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة • »

ويعقب العالم الكبير على هذا بقوله : « قال أبو محمد : ألا إن جميع الإباضية يكفرون من قال بشىء من هذه المقالات ، ويتبرأون منه ، ويستحلون دمه وماله » •

والعجيب فى الأمر أن حزم يقرر أن جميع الإباضية لا يقولون بشىء من آراء ابن أنيسة هذا ، ويحكمون على من قال شىء من هذا بالكفر ، ويستحلون دمه وماله ، فكيف ساغ عنده إذن أن يسوق هذا الرجل وطائفة : أولا فى فرق المسلمين وهم ينكرون المعلوم من الدين بالضرورة ، ثم لم اختار أن يجعلهم من الإباضية • وجميع الإباضية كما يقرر هو نفسه يكفرون من يقول بذلك • هل بينهم وشيجة نسب ، أو علاقة مصاهرة ، أم نزع عرق أم رابطة صداقة بريئة مجردة •

إنه لا شىء من ذلك طبعا ولكن بعض المتعصبين المشنعين الذين لا يزنون ما يقولون ، أطلقوا هذه الأكذوبة فنقلها ناقلون ومنهم العالم الكبير ابن حزم ولكنه اضطر معها أن يقرر موقف الإباضية منها فعقب بملاحظته الصائبة ربما استنادا الى معرفته الشخصية أو الى ما ذهب إليه من سبقه كالبغدادى الذى اعتبر هذه الفرقة خارجة عن الإسلام •

والحقيقة أن أمثال هذا التخليط والتناقض سبق أن أوردنا له أمثلة عن بعض كتاب المقالات السابقين • كان المفروض من ابن حزم بما اشتهر به من الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع ، ولذاعة النقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى يبلغ الى حد القسوة أحيانا — ألا ينزلق فيما انزلق فيه غيره ، وأن ينظف كتابه من هذه الترهات الفارغة التى تكذب نفسها ، وليس لها من قيمة اللهم إلا زيادة الصفحات فى الكتاب الذى ترد فيه •

وليت ابن حزم اكتفى بهذه الفقرة بعد أن كذبها ولكنه استمر فى الطريق •

قال ابن حزم فى نفس الكتاب :

« وقالت طائفة من أصحاب حارث الإباضى أن من زنى أو سرق أو قذف فإنه يقام عليه الحد ، ثم يستتاب مما فعل ، فان تاب ترك ، وإن أبى التوبة قتل على الردة » •

وقد سبق أن ناقشنا هذا القول الذى نقله ابن حزم ولم يسنده وأوضحنا بما فيه الكفاية أن الإباضية لا يعرفون هذا الحارث ولا فرقته وأن حكم الإباضية على الزانى والسارق والقاذف هو حكم الله وحكم رسوله عليهم • رجم للمحصن وجلد لغير المحصن ، وقطع من الرسغ للسارق ، وجلد للقاذف • بشروط مفصلة فى كتب الفقه • وقد وقعت حوادث أقام فيها أئمة الإباضية الحدود على من وجبت عليه ، أثناء إماماتهم • المشرق أو المغرب ذكرتها كتب التاريخ والوقائع مفصلة فى مناسباتها • ولم يذكر أحد أن أئمة الإباضية تجاوزوا حدود الله فى إقامة الحد فقتلوا من لا يلزمه القتل • والإباضية لا يحكمون على من لزمه الحد بالردة تاب أو لم يتب • وإسناد هذا القول إليهم كذب عليهم • وكل ما عند الإباضية فى الموضوع أنهم يبرأون من مرتكب الكبيرة سواء كانت من الكبائر التى تقام عليها الحدود أو كانت من الكبائر التى لا حدود عليها • والبراءة إنما يوقعونها على مرتكب المعصية (الكبيرة)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مادام مصرا عليها ولم يتب • فإذا تاب منها أسبغوا عليه ثوب الولاية • وأعتقد أن هذا الموقف هو الموقف الذى يتخذه كل مسلم حريص على إسلامه وكيف يستطيع المسلم التقى الورع أن يضفى محبته وولاءه على إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر عليها

والشخص الذى يقام عليه الحد لا يخلو إما أن يقام عليه الحد بعد اعترافه وإعلانه للتوبة (كما عز) مثلا فهذا لا يختلف اثنان فى صدق توبته ووجوب ولايته • وإما أن يجب عليه الحد ويقام وهو مصر على معصيته ولا يعلن التوبة مما ارتكب وهذا لاخلاف بين اثنين من الإباضية فى وجوب البراءة منه فما كان لمؤمن صادق الإيمان أن يضفى محبته وولاءه على إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر على ذلك • وأنا أظن أن الحد فى حالة التوبة تطهير وفى حالة الإصرار عقوبة وفى كلتا الحالتين لا يتجاوز تقدير الشارع فيه • ولا فرق بين من أقيم عليه الحد من العصاة ومن لم يقم عليه بل إن الكبائر كلها ما كان عليه حد وما لم يكن — عند الإباضية موجبة للبراءة وليس أكثر من البراءة ومعنى البراءة هى البغض والجفاء فى الله بسبب ارتكاب المعصية وعدم الدعاء بالمغفرة والرحمة للعصاة وليس أكثر من ذلك •

ولو عنى الإمام ابن حزم نفسه قليلا لعرف حقيقة أحكام الإباضية وسيرتهم — ولا سيما وقد عاش فى الأندلس — وقد كانت الدولة الرشيدية قائمة فى الجزائر قبل ذلك بقليل وسيرة أئمتها كانت حينئذ لا تزال متناقلة بين الألسنة ، وطرق إقامة الحدود وإجراء الأحكام فى تلك الدولة كان مما يقصه الناس بعضهم على بعض ويتحدثون به ، كما كان فى إمكان الإمام ابن حزم أن يحصل فى ذلك الحين على بعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتب الفقهية ويعرف منهـا رأى الإباضية الحقيقى • إقامة الحـدود ولكن الإمام ابن حزم انساق فى التيـار السـابق ، تيـار السخط على ما حسبه فرقا مخالفة بدافع شديد لا شعورى يقويه السخط ورغبـة ملحة فى التشنيع على تلك الفرق • وقد أضاف إلى ما ذكره فى كتـابه من تلك الشنائع المختلفة شنائع أخرى زعم أنها من مشاهداته •

قال فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) صفحة ١٨٩ ما يلى :

« وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ، ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ، ويوجبون القضـاء على من نام نهارا فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها ، إلا قليلا منهم » •

لا شك أنه يقول هذا الكلام إرادة للتشنيع على الإباضية وسوف نناقش هذه المسائل فى فصـل « مسـائل فقهية اجتهادية » وفى باب التشنيع أيضا ما يقوله فيما بعد فتأمله فيما يلى :

قال ابن حزم : فى (الفصل فى الملل والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« وإلى قول الثعالبة رجع عبد الله بن إباض فبرىء منه أصحابه فهم لا يعرفونه اليوم ، ولقد سألت من هو مقدمهم فى علمهم ومذهبهم عنه فما عرفه أحـد منهم •• » وهذا القول من ابن حـزم من أغـرب الأقوال وإن كان قد تردد على كثير من الألسنة والأقلام ، من هـم الثعالبة ؟ وما هو قولهم الذى رجع إليه عبد الله بن إباض ولماذا رجع ؟ وهل رجع فى قول واحـد أو فى عدد من الأقوال ؟ وما هى تلك الأقوال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى رجع فيها ابن إباض إلى قول الثعالبة ؟ وهل رجع إليهم فى قـول واحـد أم أنه رجع إليهم فى جميع أقوالهم ؟ أسئلة حائرة وليس لهـا جـواب عند ابن حزم ولا عند غيره ممن أورد هذه الدعوى من أولئك الكتاب الذين يختطفون الإشاعات دون تثبت ثم يروجون لها وهى من أقوى الأدلة على أنهم يكتبون عما لا يعرفون أو على الأقل عما لـم يتحققوا من صحته • كيف عرف ابن حـزم أن ابن إباض رجـع إلى قول الثعالبة ؟ أين وجـد أن أصحابه برئوا منه : ومن هـو هذا المقدم الذى معه ابن حـزم بالتحقيق فوجـده لا يعـرف شيئا عن إمامته ؟ إنها سلسلة من الدعاوى والادعاءات الواهيـة المتداعيـة يهـدم بعضها بعضا • والمؤلف فيها جميعا لا يشير إلى المصـادر التى اعتمد عليها •

ابن حزم يزعم أنه سأل من هو مقدمهـم فى علمهم ومذهبهم فلم يعرفوا شيئا عن ابن إباض • فكيف علم أنهم يبرأون منه ، وهل يعقل أن يبرأ ناس من شخص لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئا !

هل اهتم العالم الكبير حقا بالتثبت أو ذهب يسـأل عن الإباضية وإمامهم ؟ أم هى صورة من نسج الخيال يقصد منها التشنيع دون معرفة شىء حقيقى ؟ لو أراد ابن حـزم التحقق لاستطاع الاتصـال بعلمـاء الإباضية بالفعل ولذكر أسماء أولئك العلماء أو المقـدمين الـذين يعتبر قولهم حجة فى الموضوع • أو أن يطلع على كتبهم ويستمد منها الحقائق التى تناقش ولا تنكر وفى الصورة السابقة يبدو لى أن ابن حـزم سمع عمن ينتسب إلى الإباضية فى الأندلس وقـد يكون من سمع عنـه من العوام وقد يكون صاحب سـطوة أو ثروة اشتهر بسببها بين النـاس فذهب إليه ابن حزم يسأله عن إمامه ابن إباض فلم يجد عنده شيئا •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو سلكنا هذا المسلك اليوم — على انتشار الثقافة — مع ثمانين فى المائة من أتباع المذاهب لكانت النتيجة واحـدة شبيهة بما توصل إليـه ابن حزم فلو أنك أخذت تردد السؤال من هو محمد بن إدريس ؟ على من يصادفك من أتباع الشافعى بل على بعض المقدمين من التجار وأصحاب المزارع الكبيرة وغـيرهم لمـا وجـدت عند الكثير منهـم ما تريده من المعارف ، ولا يزيد الكثير منهم على أن يردد ذلك السؤال فى لهجة فيهـا استغراب وأحسنهم حـالا من يضيف إلى ذلك فيقـول لك هو إمامنـا العظيم أو هو الإمام العظيم أو إمام المذهب الشافعى أو ما يشبه هـذا مما لا غناء فيـه . فهل نستطيع أن نبنى على ذلك حكما ونقـول لقـد سألنا عن الشافعى أتباعه أو بعض المقـدمين من أتبـاعه فلم يعـرفوا عنـه شيئا .

لم يزعم أحد من الإباضية أن عبد الله بن إباض رجع الى قول الثعالبة ولا يوجد أحد من الإباضية يبرأ منه فهم مجمعون على ولايته ويعتبرونه من أئمة المسلمين ومن كبار التابعين ويحفظون سيرته وقد دونوها فى كتبهم ويعرفون الكثير من أقواله فى القضايا الشرعية وهم مع ذلك لا يرفعونه الى مكانة التقديس ، كما لا يرفعون الى مكانة التقديس أى شخص غير معصوم . ويرون أن فى أقواله كما فى أقوال غيره من الأئمـة مأخـوذا ومتروكا . صوابا وخطأ . ولا ينزهونه عن هذه المرتبة أى إمام سواء كان من أئمتهم أو أئمة غيرهم ويحتكمـون فى كل شىء الى الدليل حتى اشتهرت بينهم هـذه العبارة (يعـرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) فدعوى أن ابن إباض رجع الى قول الثعالبة وإن الإباضيـة يبرأون منه هى الأخرى دعوى تحاول أن تلحق بركب التشنيعات التى تنسب الى الإباضية وأئمتهم . الغريب حقـا مـن كتاب المقالات أنهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ينسبون الى الإباضية من ليس منهم ويعتبرونهم أئمة ورؤساء فرق لهم ويحولون أئمتهم الحقيقيين فيلحقونهم بطوائف أو فرق أخرى ولعله مما يرفه على القارىء أن نختم هذا الفصل بما يلى :

قال ابن حزم فى كتابه (الفصل بين الملل والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« ومن حماقاتهم قول بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، فانه كان يقول : كل ذنب صغير أو كبير ، ولو كان أخذ حبة من خردل بغيرحق ، أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهى شرك بالله » .

هذه كما يرى القارىء الكريم ليست من حماقات الإباضية ، وإنما هى من حماقات العالم الكبير ابن حـزم الأندلسى ، وللعلمـاء الكبـار حماقاتهم . من هو هذا البكر الـذى لا يعرف أبوه ولا أمـه ولا حتى عصبة أبيه وإنما ينسب الى أخواله . ثم يكون هذا البكر المجهول النسب إماماً له أقوال يعتمد بها وتذكر فى الكتب ثم إن العالم الكبير ابا محمد ابن حزم وهو يصنف المسلمين على فرق يعثر على هذا الرجل فلا يجد له مكانا ثم يأتى به يسوقه حتى يجد فراغا بين صفوف الإباضية فيلقيه هناك ثم ينسبه إليهم ثم يلقى عليهم تبعة حماقاته .

الواقع أنه لا أسخف فى التشنيع على الناس من هذا المستوى ، إن الإباضية لا يعرفون هذا الشخص المجهول ، ولا يعرفون أقـواله ، ولا يسودون بها بياض صحفهم ، وينزهون كتبهم عن مثل هذه الأضاليل . والدعاوى الفارغة ، والمقالات الشاذة ، وهم أحرص على أوقاتهم وأوقات قرائهم أن تضيع فى مثل هذه الحماقات التى تعاون على نسج خيوطها : التعصب والانغلاق ، والدعاية الفاجرة ، والخيال السقيم ، وعدم الأمانة فى النقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشهادة ، ثم توجيه السياسة الماكرة بأساليبها المختلفة ، فوقع ضحية لذلك جماعة من أفذاذ العلماء أمثال ابن حزم الذى نتحدث عنه وبعض من سبقه أو سوف نشير إليه ، وجازت عليهم تلك الأخطاء كلها رغم ادعائهم الحذر والحيطة .

ونحن فى الواقع قد نلتمس للأقدمين عذرا إذا قصروا فى الوصول الى الحقائق بسبب ما أشرنا إليه من العوائق . أما المعاصرون الذين يعنون أنفسهم للكتابة عن غيرهم فليس لهم أى عذر فى التقصير ، لسهولة المواصلات ، ويسر المراجع ، وزوال الضغوط المادية والمعنوية من طرق الباحثين ، مشاهداتهم عيانا للأضرار التى لحقت الأمة المسلمة بسبب التشتت والفرقة ، وإدراكهم أن التشتت والفرقة إنما نتج عن تشدد أصحاب المذاهب الفرق فى استمساكهم بآراء أئمتهم ، ونقمتهم ومحاربتهم لكل من يخالفهم ، مما يولد رد الفعل الأشد عصبية والأكثر انغلاقاً .

عسى الله أن يلهم الأمة المسلمة رشدها ، ويجمع صفها ، ويعيدها الى المحجة البيضاء ، تحافظ على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقتدى بأصحابه فى هديهم ، وتعتبر بقية الأئمة والعلماء إنما هم جنود خدموا الشريعة الإسلامية حسب اجتهاداتهم وفهمهم ، يصدر منهم الصواب والخطأ ليس من حقنا أن نزيد أعمالهم أيهما أرجح ولا أن نفاضل بينهم ، وإنما علينا أن نأخذ من أقوالهم ما أيده الدليل من كتاب أو سنة باعتبار قوة الدليل لا باعتبار صدوره من إمام معين . وليس لنا أن نخرج غيره ممن لم نأخذ بقوله ، لأننا لا نأخذ بأقوال الناس وإنما نأخذ بأحكام الله . ولسنا على أحد ممن مضى بمسيطرين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبو المظفر الاسفراييني والإباضية

من علماء القرن الخامس الذين كتبوا عن فرق الأمة الإسلامية : أبو المظفر الاسفراييني • وقد كتب عن الإباضية فيمن كتب عنه من الفرق والقارىء الكريم حين يقرأ كتاب أبى المظفر يجده صورة أخرى باهتة للبغدادى • فهو يدخل الموضوع كما يدخل محارب متحمس الى ساحة معركة حربية حاسمة يتقابل فيها خصمان عنيدان • وهو يعد قبل ذلك كل ما يستطيع من أسلحة ، أو كل ما أوتى من قوة لينتصر الفريق الذى يريده ويحطم خصمه تحطيما لا يقوم من بعده •

بهذه الروح يبدأ أبو المظفر كتابه (التبصير) وفى المقدمة قسم الأمة الإسلامية الى قسمين : حكم بالهدى والاستقامة ثم الجنة لقسم وحكم بالزيغ والضلال ثم النار للقسم الآخر • وهى صورة تكاد تكون طبق الأصل مما عند أستاذه البغدادى • وليس يهمنا فى هذا الفصل — بطبيعة الحال — إلا حديثه عن الإباضية •

قال فى كتابه التبصير طبعة ١٩٥٥ ص ٥٦ ما يلى :

« الفرقة السادسة الإباضية ، وهم أتباع عبد الله بن إباض • ثم هم فيما بينهم فرق ، وكلهم يقولون إن مخالفيهم من فرق هذه الأمة كفار لا مشركون ولا مؤمنون ، ويجوزون شهاداتهم ، ويحرمون دماءهم فى السر ، ويستبيحونها فى العلانية ، ويجوزون مناكحتهم ويثبتون التوارث بينهم ، ويحرمون بعض غنائمهم ، ويحللون بعضها • ويحللون ما كان من جملة الأسلاب والسلاح ويحرمون ما كان من ذهب أو فضة ، ويردونها الى أربابها » •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد هذه المقدمة الصغيرة التى سبقه إليها البغدادى وأبو الحسن انتقل الى ذكر الفرق السابقة التى ذكرها من قبله أبو الحسن والبغدادى والعبارة فى الغالب عبارة البغدادى مع تصرف بسيط واضح التصنيع بعد أن ذكر تلك الفرق ومقالات كل منها بما فيها من شناعات وأباطيل كما عرضناها من قبل • عرض الى قصة الجارية التى نقلناها بتفاصيلها عن أبى الحسن • وقد اختصرها الاسفراييني ولم يهتم بها اهتمام الأشعرى والبغدادى • والإسفراييني فيما كتبه عن الإباضية فى هذا الكتاب لم يبذل هو الآخر أى مجهود لمعرفة أى شىء حقيقى عن الإباضية • وإنما انساق مع تيار من سبقه ممن كتب عنهم من غيرهم فاعتبرهم فرقة من فوق الخوارج كما فعل الأشعرى والبغدادى وابن حزم من قبله ثم نسب إليهم تلك المقالات التى رأيتها عند الأشعرى ، وجعل من أئمتهم أولئك الأشخاص الذين نسبهم إليهم من سبق دون تحقيق أو تمحيص أو تعليق هو كل ما امتاز به عن سابقيه أنه تتملكه — أثناء كتابه — من حين الى آخر ثورة غضب عارمة فيصب على تلك الفرق وأصحابها سيلا من الشتائم واللعنات •

وقد أحس محقق الكتاب الشيخ محمد زاهد الكوثرى بملاحظتين عن مؤلف الكتاب — قال فى مقدمته للكتاب ص ١٣ ما يلى :

« والمصنف رحمه الله استوفى فى هذا الكتاب — فى غير إملال ولا إخلال — بيان عقائد أصحاب الملل والنحل ببعض عنف فى بعض المواقف »• ويقول بعد أسطر :

« وقد غمز الرازى فى الأجوبة النجارية أبا منصور البغدادى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالتعصب والقسوة ، وأبا الفتح الشهرستانى السارى وراءه بذلك أيضا ، ولكن الثانى ألطف لهجة بكثير » .

ويقول بعد أسطر :

وقصارى ما يؤخذ به علماء هذا الشأن عدم التثبت فى « عزو الأقوال كما سبق » . والقارىء الكريم حين يقرأ هذه الفقرة الأخيرة من كلام الشيخ الكوثرى يدرك أن الشيخ قد رأى أن أقوالا تنسب الى غير أصحابها ، وأن ناساً يقولون ما لم يقولوا كما أنه اقتنع بملاحظة الرازى على بعضهم شدة التعصب وعبارة شيخنا الكوثرى الناعمة التى تشير الى الملاحظات السابقة تحمل معنى الاعتذار عن هذا التصرف من علماء هذا الشأن وكأنه لا يرى فى ذلك كبير يأس بل إنه حاول أن يبرر موقفهم العنيف ضد الفرق المخالفة . ويبدو لى أن هذه النقطة بالذات — نقطة عدم التثبت فى عزو الأقوال — نقطة مهمة . فان عدم التثبت فى نسبة الأقوال الى أصحابها وعدم التحقق من معرفة ذلك معرفة صحيحة . يؤدى الى نسبتها الى قوم هم برآء منها . وقد يؤدى ذلك الى الحكم على ناس بالفسق أو الكفر أو البدعة أو الضلال . وهم أبرياء من ذلك وأصح عقيدة ممن يرميهم بذلك .

وفى الصفحات السابقة أوضحت للقارىء الكريم أمثلة كثيرة فى عدم التثبت والتحرى فيما نسبه بعض الكتاب الى الإباضية وأن بعض ما نسبوه إليهم على أنه من مقالاتهم يحكم الإباضية على القائلين به بأنه مرتد كافر ، أبو المظفر كما أشرت فى السابق كان متأثرا بالبغدادى تأثرا كبيرا ويظهر هذا واضحا جليا فى أسلوب الكتابة وفى المنهج الذى سلكه وفى الحنق الشديد على أصحاب الفرق والمقالات التى تناولها . وفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العنف الذى طبع أحاديثه به • وفى عدم التحرز من الحكم عليها بأحكام المشركين الى درجة التبجح بذلك • ثم المغالاة فى مدح الفرق الموافقة الى درجة الإعتزاز والافتخار بالملوك الظالمين وما شادوه من أبنية وأزهقوه من أرواح •

يقول الاسفراييني فى كتابه التبصير ص ١٧٦ وهو يعدد مآثر أهل السنة ما يلى :

« وأما أنواع الاجتهادات الفعلية التى مدارها على أهل السنة والجماعة فى بلاد الإسلام فمشهورة مذكورة ، مثل المساجد والرباطات المثبتة فى بلاد أهل السنة • إما فى أيام بنى أمية وإما فى أيام بنى العباس ، مثل مسجد دمشق المبنى فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان سنيا قتل فى أيامه ، ما شاء الله من الخوارج والروافض » •

ويقول بعد أسطر :

« وكان بعض المصريين يتغلبون ويسعون فى عمارة شىء منه ولكن لا موقع لما كانوا يفعلونه مع سوء اعتقادهم » •

وبقطع النظر عن دين الوليد بن عبد الملك الذى يقول عنه أكثر المؤرخين أنه كان جبارا عنيدا كما جاء فى مروج الذهب للمسعودى ص ١٦٦ من الجزء الثالث ما يلى :

« وكان الوليد جبارا عنيدا ظلوما غشوما » •

فإن الوليد توفى سنة ٩٦ والمذاهب التى يطلق عليها لفظ أهل السنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم توجد بعد فإن أبا حنيفة كان حينئذ غلاما ومالك كان ابن سنة واحدة • أما الشافعى وأحمد فلم يولدا بعد • فلو فرض أن الوليد قدم من أعمال الخير ما يعتز به المسلمون أو يذكرونه فى مقام الاحتجاج فإن ذلك يكون سابقا لنشأة المذاهب والفرق ولا حق فيه لهم ودعوى أنه كان سنيا دعوى لا تقوم على أساس ، ولو صح هذا لكان الاعتزاز بعمر بن عبد العزيز أولى وأحـــق • وإذا افتخر أهل السنة بما قام به الملوك والأمراء ونسبوه إلى أنفســـهم فهـــل يعتبر من أعمال أهل السنة المنجنيقات التى وجهت إلى الكعبة والأعمال الوحشية التى قام بها قادة الدولة الأموية فى المدينة المنورة مثلا • لا شك أن القارىء الكريم يلحظ هنا أصابع السياسة الماكرة وهى توجه أقلام العلماء فى دهاء لمـــا تريده فتزين أعمال الدولة الأموية وتعتبرها من أمجـــاد أهل السنة بينما تنثنى إلى ما يشابه تلك الأعمـــال لمـــا قام به العبيديون فأسقطوه من الحساب بدعوى فساد نياتهم •

هذا بعض ما تفعله السياسة الماكرة فى توجيه الأقلام •

أما تعبير المؤلف عن الوليد : « وكان سنيا قتل فى أيامه ما شاء الله من الخوارج والروافض » فيوهم أنه إنما اعتبر الوليد سنيا لأنه أمعن فى قتل الروافض والخـــوارج • ولا شك أن الإمعـــان فى قتل المسامين لمخالفتهم فى قول أو رأى يناقض السنة ولا يكون دليلا عـــلى التمســـك بما ما لـــم يكن إقامة لحـــد من حـــدود الله • وقـــد قـــال الرســـول صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رســـول الله فإذا قالوها فقـــد عصـــموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقهـــا » • وإذا جاز له أن يعتبر الوليد بن عبد الملك سنيا وأعجبه أنه قتل فى أيامه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما شاء الله من المسلمين الآخـرين أفلا يعتبر الحجاج أيضا سنيا ويعجبه أيضا العدد الهائل الذى قتله الحجاج قال المسعودى فى مروج الذهـب صفحة ١٧٥ من الجزء الثالث ما يلى :

« وأحصى من قتله سـوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجـد مائة وعشرين ألفا ، ومات فى حبسه خمسـون ألف رجـل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجـردة ، وكان يحبس النسـاء والرجال فى موضع واحد » .

ابو الفتح الشهرستانى والإباضية

اشتهر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى النصـف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد ذاع صيته بين كتاب المقـالات فى العقائد ، ويعتبر كتابه (الملل والنحـل) من أهم المراجع فى هـذه المواضيع وكثير من كتاب اليوم يعتمـدون عليـه كمصـدر محقق ثابت لا يناقش . ويهمنا أن نرافق هذا المؤلف الكبير بعض الوقـت لنستجلى موقفه ، ونرى هل اسـتطاع أن يتجنب الأخطـاء التى وقع فيهـا من سبقوه ؟

يقول أبو الفتح فى كتابه (الملل والنحل) الجـزء الأول من الطبعة الأولى لمكتبة الحسين التجارية ص ٤ ما يلى :

« ومن المعلوم الذى لا مراء فيه أنه ليس كل من عبر عن غيره بمقالة ما فى مسـألة ما عد صاحب مقالة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول : صفحة ٦ ما يلى :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » .

فهل وفى أبو الفتح لما خططه لوضع كتابه . وشرطه على نفسه من استقاء الآراء والعقائد من مصادر أصحابها ؟

يؤسفنى أن أقول أنه لم يفعل ذلك ، وأنه سلك نفس المسلك الذى مرّ به سابقوه ، فهو يبحث عن أسماء الرجال وينسب إليهم الأقوال ليبلغ بعدد الفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة يدفعها جميعا — محسنها ومسيئها — إلى النار ويستخلص منها الثالثة والسبعين فيقودها إلى الجنة . وقد اعتمد فى ذلك كله على من سبقه من أصحاب الكتب التى ناقشنا بعضها وإن كان قد خالفهم فى جزئيات يسيرة ربما عرضنا لبعضها فى نهاية هذا الفصل .

وعد أبو الفتح أنه سيذكر الفرق بتجرد ، وأنه لا يصحح ولا ينتقد ، ولا يصوب ولا يخطىء ، ولا يميز بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، ولكنه ناقض نفسه من الخطوة الأولى . ومن مقدمة الكتاب جرد سيفه وجعل ينظم صفوف الفرق ويصففها فى طوابير طويلة تمتد جذورها فى أعماق التاريخ من عصره إلى عهد إبليس متخذة فى كل عصر مظهرا مناسبا من موقف إبليس إلى موقف المشركين المنافقين إلى موقف الفرق الضالة ، ويحاول أن يربط العلائق الوثيقة بين هذه الفرق الضالة وأسلافها فى نظره من المنافقين أو المشركين أو الشياطين . وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يرجع جميع الفرق الضالة فى نظره إلى أصـــول أربعة • يقـــول فى صفحة ١٠ من كتابه ما يلى : « فاللعين الأول لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل لزمه أن يجرى عليه حكم الخالق فى الخلق أو حـــكم الخلق فى الخالق ، والأول غلو والثانى تقصير ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية والمشبهة والغـــلاة من الروافض حيث غلوا فى حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الجـــلال • وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة حيث قصروا وصفـــه تعالى بصفات المخلوقين ، فالمعتزلة مشبهة الأفعال والمشبهة حلولية الصفات وكل واحـــد منهم أعور بأى عينية شـــاء ، فإن من قال إنمـــا يحسن منـــه ما يحسن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، فقد شـــبه الخـــالق بالخلق • ومن قال يوصف البارىء بما يوصف به الخلق ، أو يوصف الخلق بمـــا يوصف به البارىء تعالى عز اسمه فقد اعتزل عن الحق •

وسِنْخ القدرية طلب العـــلة فى كل شىء وذلك من سِنْخ اللعـــين الأول إذ طلب العلة فى الخلق أولا والحكمة فى التكليف ثانيا • والفائدة تكليف السجود لآدم عليه الســـلام ثالثا • وعنه نشأ مـــذهب (الخـــوارج) إذ لا فرق بين قولهم لا حكم إلا الله (١) ، ولا يحكم الرجال ، وبين قوله لا أسجد إلا لك • أأسجد لبشر خلقته من صلصال • وبالجملة (كلا طرفى قصـــد الأمور ذميم) (فالمعتزلة) غلوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات (المشبهة) قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام (والروافض) غلوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول

---

(١) هذه الكلمة مقتبسة من القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ان الحكم الا لله » فى سورة الأنعام وفى سورة يوسف كل ما نعلمه من قال هذه الكلمة انه اتى بما النافية بدلا من ان النافية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(والخوارج) قصروا حيث نفوا تحكيم الرجـال وأنت ترى أن هـذه الشبهات كلها ناشئة من شبهات اللعين الأول • وتلك فى الأول مصدرها ، وهذه فى الآخـرة مظهرها » •

وهكذا ترى من أول الأمر أنه حاول أن يربط بين إبليس وأصـول الفرق بتلك الخيوط الضعيفة التى توهم صلاحيتها للربط فهو قد حـكم عليها مسبقا بالضـلال والزيغ واتباع الهوى وإنما يوردها ليحـدد بهـا الإحصائية ويلتمس لها المبررات التى تجعلها ضمن الموكب الضخم الذى يدفعه كتاب المقالات إلى الهاوية •

وفيما يتعلق بوعده ألا يكتب عن أية فرقة إلا بناء على ما يجـده فى كتب علماء تلك الفرقة فيؤسفنى أن أقول أن الإمام الشهرستانى قد أخل بوعده ولم يوف به ، ولم يعمل بالشرط الذى شرطه على نفسـه ، هذا على الأقل بالنسبة إلى الإضية • ولست أدرى موقفه من كتب الفرق الأخرى وإن كنت أحسب أنه لا يختلف •

والحقيقة أن هذا الموقف من نسبة الآراء والعقـائد إلى مصـادر أصحابها موقف خطير • فالكاتب حين يعد قراءه بأنه يعتمـد فى نسـبة الأقوال على مصادر أصحابها ، يضع الثقة به فى الميزان ، فإن وفى كان أهلا للثقة والتصديق فى كل شىء ، وإن أخل بوعده ، كان موضعا للشك يجرى البحث من ورائه لتحقيق ما يقول :

قال أبو الفتح الشهرستانى فى كتابه الملـل والنحل الجـزء الأول ص ٢١٢ ما يلى :

« الإباضية أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان

ابن محمد فوجه إليه عبد الملك بن محمد بن عطية فقاتله بثبالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضى كان رفيقا له فى جميع أحواله وأقواله » .

وقال (أى ابن إباض) إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام — وحرام قتلهم وسبهم فى السرغيلة الا بعد نصب القتال . وإقامة الحجة .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى . وأجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم ، وقالوا فى مرتكبى الكبائر أنهم موحدون لا مؤمنون .

ثم ذكر عدة مقالات قال إن الكعبى حكاها عنهم ويهمنى أن يعرف القارىء الكريم الملاحظات الآتية عن مرافقتنا لأبى الفتح الشهرستانى :

١ — ذكر أن عبد الله بن إباض خرج أيام مروان بن محمد وقتل بثبالة . وهذا خطأ تسرب إلى أبى الفتح وإلى جملة ممن كتب عن الموضوع . لأن عبد الله بن إباض لم يعش إلى زمن مروان وإنما توفى فى أواخر أيام عبد الملك ولعل الذين ذكروا هذا القول اشتبه عليهم بأحد الرجلين : المختار بن عوف ، أو بلج بن عقبة ، من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهم جميعا من الإباضية .

٢ — والمقالات التى نسبها الى الإباضية هى بعض ما نسبه له من تحدثنا عنهم سابقا وسوف نعرض لها فى بعض فصول هذا الكتاب ونوضح فيها ما كان منها موافقا لمقالات الإباضية ، وما كان مخالفا لها ، وما صيغ بغموض وإبهام يحتاج إلى شىء من الإيضاح والبيان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ — ذكر جملة من المقالات المنسوبة إلى الإباضية ، ونص على أن الكعبى حكاها عنهم • وهذا موقف سليم من أبى الفتح حـين تخلص من عهدة تلك الأقوال ونسبها إلى من حكاها بما فيها من صدق أو غيره •

٤ — حسب الحفصية والحارثية واليزيدية فرقا مستقلة ولم يدخلها فى الإباضية وهو موقف فيه تمحيص وتحقيق خالف فيه السـابقين ممن كتبوا فى الموضوع •

٥ — لم يذكر قصة ثعلبة ولا قصة بيع الأمة وما بنى على ذلك ، فسلم كتابه من تلك النزعات الفارغة • والأباطيل الجـوفاء •

ويتضح من هذا أن أبا الفتح وإن سلك طريق الآخـرين فى تقسيم الفرق والحكم عليها إلا أنه كان أكثر دقة واجتهادا وتحريا من سابقيه ، وخالفهم فى عدد من الواقف تقدر له ، ولا نأخذ عليه شيئا غير ما ذكرناه سـابقا فى تورطه كمـا تورط غيره فى حكمه على مجمـوعة من الفـرق بالضـلال مسبقا مع شرطه على نفسه أنه سيقف من الجميع موقفا سلبيا لا يصوب ولا يخطىء ، ثم وعـده بالرجوع إلى مصادر الفرق فى نسبة الأقوال وعدم وفائه بذلك • وبالنسبة الى الإباضية بدلا من أن يرجع الى علمائهم أو كتبهم التجـأ إلى الكعبى • وغيره ممن لم يذكره فوقـع فى أخطاء كان حريا ألا يقع فيهـا • أما خطؤه فى تاريخ عبد الله بن إباض فهذا خطأ قد لا يسلم من مثله الكثير من الكتاب •

وعلى كل حال فأبو الفتح عندما كتب عن الإباضية لم يأخذ مقالاتهم من مصادرهم وإنما أخذها من مصادر غيرهم ولكن ذكره لتلك المقـالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يتسم بدقة الملاحظة والمعرفة لآراء الفرق ، ولذلك فقد نسب ما قيل له عن الإباضية الى رواته ، وجعل بعض من ما كان يحسب على الإباضية وليس منهم فرقا مستقلة وأغفل قصة النزاع على الأمة والطفلة ، وهـذا وحده يعتبر منه نقدا وردًا على كتاب المقالات السابقين • وهى خطـوة تستحق الثناء والتقـدير •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

مع المعاصرين

* مع الأستاذ على مصطفى الغوالى
* مع أبى زهـرة
* مع عبد القادر شيبة الحمد
* مع الدكتور هويدى
* مع الدكتور هويدى أيضا
* د • هويدى فى تبعية المستشرقين
* مع عز الدين التنوخى
* مع الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى
* مع الأستاذين : التنوخى وإبراهيم عبد الباقى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثانى

مع المعاصرين

الكتب التى تحدثت عن الفرق الإسلامية فى هذا العصر ـ سواء كانت تعنى بالفرق جميعها أو ببعضها ـ كثيرة ، ومناهجها فى البحث مختلفة ، والإحاطة بها غير ممكنة ، والأساليب تناولتها بها تختلف من كاتب إلى كاتب ، منهم التقليدى الذى يرجع إلى المصادر القديمة ، فيأخذ عنها بالنص أو بالمعنى لا يخرج عن دائرة تلك المصادر المحدودة التى عرضها ووثق بها ، وهو فى ذلك لا يستخدم فكرا ، ولا يعمل رأيا • ومنهم من يميل عن المصادر العربية إلى المصادر الأجنبية ، يصطنع أسلوبهم ويتخذ منهجا ـ فى بحثه ـ شبيها بمناهجهم ، ويقتبس منهم الآراء والنظريات ، ويبنى على مقتضاها الأحكام • ومنهم من يبذل الجهد ويطلع على مختلف المصادر • ولا يبنى حكمه على فرقة إلا بعد الرجوع إلى مصادرها هى نفسها ، ومقارنتها بما قيل عنها •

وبعد دراسة لموضوع الإباضية فى عدد من كتابات المعاصرين واستعراض لمناهجهم وأساليبهم استقر رأيى على أن آخذ نماذج منهم تمثل الاتجاهات السابقة :

وكان اختيارى لمن يمثل الاتجاهات السابقة كما يلى :

١ ـ الأستاذ على مصطفى الغوابى

٢ ـ الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ ــ الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد

٤ ــ الدكتور يحيى هــويدى

٥ ــ الأستاذ عز الدين التنوخى

٦ ــ الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى

أما كتبهم التى كانت مرجعا للدراسة فى هذه الفصــول فهى حسب الترتيب الســابق :

١ ــ تاريخ الفرق الإسلامية	الأستاذ الغوابى
٢ ــ المذاهب الإســلامية	الأستاذ أبو زهرة
٣ ــ تاريخ المذاهب الفقهية	الأستاذ أبو زهرة
الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة	الأستاذ شيبة الحمد
تاريخ فلسفة الإسلام من القارة الإفريقية	دكتور هويدى
مقدمات على مجموعة فى الكتب	الأستاذ عز الدين التنوخى
الدين والعلم الحديث	الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى

أرجو أن يجد القارىء الكريم متعة فى مرافقة هؤلاء الكتاب العظام .

مع الأستاذ على مصطفى الغوابى

هذا مؤلف معاصر كتب عن الفرق الإسلامية ، وهو فى كتابته عن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرق كان يبذل جهدا مشكورا ليظهر بمظهر الاعتدال وعدم التعصب ، واستعمل فى كتابته أسلوبا غاية فى الرقة واللطف .

وكان يحاول أن يجمع فرق المسلمين جميعا على صعيد المحبة والاحترام والتعاون ، وأن يذكر ، لكل منها — على الأقل — مزاياها الظاهرة فى سلوكها العام ، وفى خدمتها للإسلام . ولكنه مع كل ذلك لم يسلم من عدد من الانزلاقات . سببها له اعتماده المطلق وثقته الكاملة فى جانب واحد من كتب المقالات فقد اعتمد فى جميع ما كتبه عن الإباضية — وهم فى نظره وفى مصادره فرقة من فرق الخوارج — على المصادر الآتية :

المقالات للأشعرى

والفرق بين الفرق للبغدادى

والملل والنحل للشهرستانى وكتاب التبصير للإسفراييني

وهذه الكتب الأربعة قد سبق أن تحدثنا عنها وعرفنا موقفها من الإباضية كما أشار أحيانا قليلة إلى الرازى ، واعتمد فى معرفة مواطن الإباضية فى العصر الحاضر على المستشرق جولدتسيهر . ومعروف بالبداهة أنه مادامت هذه مصادره فإنه لن يخرج فى تكوين رأيه عن نطاقها ، اللهم إلا باللهجة والأسلوب . ومع كل هذا فقد كانت له وقفات جديرة بالتقدير لأنها تدل على نزعة حرة فى التفكير فعمل بوعى ، وأنه لا ينساق مع التيار دون أن يرى ما فى طريقه من تعرجات وأخاديد .

قلت : إنه يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج ولذلك فإنه من المهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— فيما أرى — أن أصحبه قليلا حينما يعرض لهم حتى أستطيع أن أحدد جوانب النقاش على أسس واضحة .

يسوق ثلاثة تعاريف لمعنى كلمة الخوارج فيقول :

١ — « إنهم سموا خوارج لخروجهم عن على بن أبى طالب » .

ويعزو هذا التعريف إلى أبى الحسن الأشعرى .

٢ — يرجح فى هامش الصفحة أن التسمية مأخوذة من قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وعلى هذا تكون التسمية لقب مدح لاذمّ وتكون منهم لا من مخالفيهم ، وأن حياتهم التى صبغت بالتفانى فى القتال تحقيقا لمبادئهم تساعدنا على هذا الاستنتاج .

٣ — « إن كل من خرج عن الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة فى كل زمان ، وعلى هذا التعريف يكون تسميتهم بالخوارج من مخالفيهم لامنهم ، وأن الخوارج مستمرون فى كل وقت مادام يوجد من يخرج على رؤساء الحكومات » وينسب هذا التعريف إلى الشهرستانى .

ورغم أنه يرجح التعريف الثانى إلا أنه يقول : « ولكن هناك فرق بين الخوارج بهذا الاصطلاح — أى الاصطلاح الذى نسبه إلى الشهرستانى — والخوارج الذين نؤرخ لهم . وهو بعد أن يذكر هذا يحاول أن يلخص حركتهم فى مجرى التاريخ ولكن هوة عميقة تعترض طريقه فلا يستطيع أن يتخطاها — كما فعل المؤرخون وأصحاب المقالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من قبله — دون وقفة رائعة من التفكير والتأمل • ثم يستعرض آراء الخوارج فى الجملة — كما تصورها مصادره ثم ينتقل إلى استعراض فرقهم الأصلية فرقة فرقة حتى يصل إلى الإباضية متبعا فى ذلك نفس المنهج الذى سارت عليه تلك المصادر ولكنه فوجىء مفاجأة أخرى — لم يهتم لها السابقون — تركته يقف فى حيرة وتأمل •

ولكى نوضح للقارىء الكريم هذين الموقفين يجدر بنا أن نعود إليهما بشىء من التفصيل • كان الأستاذ الغوابى يلخص حركة الخوارج فى مجرى التاريخ حسب مصادره السابقة وتتبعها حتى ذكر أن أهل النهروان قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا تسعة أشخاص من أربعة آلاف وتذكر تلك المصادر أن الأربعة الآلاف لم يستطيعوا أن يقتلوا من محاربيهم إلا تسعة أشخاص كأنما كان أولئك الناس مقيدين لا يحملون سلاحا • وأن أولئك التسعة الذين نجوا من تلك المجزرة الرهيبة تفرقوا فى البلاد ولا شك أن من كان على مثل هذه الحالة لا يستطيع أن يقوم بحركة فى مدى قريب • ولكنه فوجىء وهو يستعرض أحداث التاريخ بأن العصر الأموى ابتداء من معاوية — وبعد أن قتل المحكمة كلهم على ضفة النهر — كان مشحونا بحركة دائبة للخروج فلم يظهر له كيف يربط الصلة بين المحكمة الذين قضى عليهم حسبما تذكر المصادر وبين حركة الخوارج فيما بعد ويتساءل عن هذه العلاقة فيما بينهما فى حيرة ولكنه لا يحظى بجواب لأن المؤرخين السابقين لم يقدموا أى شىء عن ذلك بل إنهم لم يهتموا أو لم يحسوا به ولذلك فهو يستسلم فى ارتياب وحيرة ثم يتخذ موقفا ظن أنه يقدم بعض الحل إذا لم يقدم الحل كله فاعتبر المحكمة سلفا للخوارج ولو أنه لم يستطع أن يوضح هذه الرابطة السلفية أو يقدم لها تفسيرا اللهم إلا إذا كان يراها — فيما بينه وبين نفسه — بوراثة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكرية أو نسبية غير مباشرة • ذلك أن المحكمة إنما كان الخلاف بينهم وبين أمير المؤمنين على وقد انتهوا فى سنة ٣٧ من الهجرة أما الخوارج فقد وضح موقفهم بمبادئهم الخاصة ضد الأمويين فى سنة ٦٤ للهجرة بقيادة الأزارقة والنجدات كما يرى الأستاذ الغوابى وإذن فهنالك انفصام تاريخى عملى بين حركة المحكمة وحركة الخوارج وهناك انفصام فكرى بينهما أيضا وإن لم يشر إليه الأستاذ الغوابى صراحة ولكنك تحسه وأنت تقرأ وذلك أن الميدان الذى يشتغل فيه الخوارج غير الميدان الذى اشتغل فيه المحكمة •

وحين كان يستعرض مبادىء الخوارج وأفكارهم عامة وجد أن المصادر التى يعتمد عليها ترميهم بالشذوذ والتشدد وضحالة الفهم والعقل ، فلما استعرض فرقهم فرقة فرقه واستعرض الإباضية — كفرقة من الخوارج حسب المصادر التى يعتمدها — لم يجد فيها تلك الصورة الشرسة البغيضة التى ترسم عن الخوارج — سواء كان القصد من الرسم إعطاء صورة عنهم أو إعطاء صورة لهم — فوقف وقفته الثانية من التأمل والتفكير ، والمؤرخون — كالعادة — لا يقدمون له الحل وهو لا يستطيع أن يتهم المصادر التى يعتمد عليها ، فهى من الكثرة والتعدد بحيث لا يسهل اتهامها • وخطر له الحل فهو قد افترض أن للخوارج سلفا وخلفا فما يمنع أن يكون الخلف قد غيروا موقفهم عن سلفهم فتساهلوا بدل التشدد الذى كان عند سلفهم ولما كانت آراء الإباضية لا تحمل شيئا من طابع الخوارج الذى تصفه المصادر ، وموافقهم لا تتفق مع مواقف أولئك المتشددين فما يمنع أن يكون الإباضية هم خلف الخوارج ولكنهم تساهلوا وعدلوا عن موقفهم المتزمت • ولا شك أن هذه الفكرة كانت فى مبدأ الأمر خاطرة خطرت فى ذهن الأستاذ الغوابى وهو يقلب وجوه الرأى للخروج من الهوة التى تركها المؤرخون وكتاب المقالات دون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أى اهتمام ، وانتقلت الخاطرة فصارت فرضا ثم صارت حقيقة حلت المشكلة فى ذهن الأستاذ وبنى عليها بحثه فيما بقى • ولكن هذه الخاطرة أو الفرضية كالفرضية الأولى تبقيان متأرجحتين كالخشبة التى توضع للعبور فوق هوة عميقة ما تطؤها قدم حتى تهتز ويحس المار بالحقيقة المختفية تحته • وأحب هنا أن أذكر للقارىء الكريم أن الكتاب الذين تناولوا الخوارج فى أبحاثهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول هم أولئك الكتاب المتشددون الناقمون الذين يخرجونهم من الإسلام أو يكادون ، وهم يرمون عليهم كل أوزار التاريخ الإسلامى يقول مؤرخ معاصر (١) : « ومنذ أن خرجوا على سيدنا على انفتح باب الفتنة فلم يسد بعد • ولن يسد مادام لهم أنصار على وجه الأرض » •

القسم الثانى هم أولئك الذين ينقلون ما يجدونه فى المصادر دون دراسة أو تفهم أو تحليل وآراؤهم تكون حسب الصدفة فإذا وقعوا على مصادر تميل الى الخوارج أو تعطف عليهم كان لهم رأى وإذا وقعوا على مناوئة لهم كان لهم رأى آخر مغاير •

القسم الثالث هم أولئك الذين يقفون منهم موقف الاعتدال يحسبونهم من جملة المسلمين ويتحدثون عنهم بلطف وسماحة وقد يلتمسون لهم الأعذار وربما أيدوهم فى بعض آرائهم ومبادئهم وفى هذا القسم الأستاذ على مصطفى الغوابى وقد حاول أن يعتذر للخوارج بأعذار سبق أن اعتذر لهم بها كتاب سابقون وفى إمكانى أن ألخصها لك فى عدد من النقاط مستخلصة من فصله « الحكم عليهم » كما يأتى :

١ — كان إدراكهم للتعاليم الدينية إدراكاً سطحياً •

---

(١) انظر كتاب الفتح العربى فى ليبيا الطبعة الأولى ص ١٠٤ •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — كان يصاحب إدراكهم إخلاص لما عرفوه من الدين حسب فهمهم .

٣ — إخلاصهم لعقائدهم جعلهم ينكرون على كل من يخالف أمراً من أمور الدين — حسب فهمهم وإدراكهم — .

٤ — هذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيهم بالشرك أو الكفر .

٥ — عدم الدقة فى الأحكام كانت عند أوائل الخوارج .

وهكذا ترى أن الاعتذار عنهم — حتى ممن يعطف عليهم ويتسامح معهم — هو الآخر اتهام بصورة أخرى قد تكون أقسى وأشد .

والمشكلة الحقيقية فى كتاب المقالات ان الواحد فيهم حين ينتصب للكتابة يعطى لنفسه حقين ثابتين ينطلق من خلالهما :

الحق الأول أن الفرقة التى ينتسب إليها هى التى تمثل الإسلام حقيقة فهى غير خاضعة لا للتقويم ولا للنقد ولا للمقارنة وحكمها على غيرها هو حكم الإسلام نفسه وآرؤها وعقائدها هى الميزان الذى توزن به عقائد وآراء الآخرين .

الحق الثانى يرى أنه ما دام ينتسب الى فرقه محقة تمثل الإسلام فمن صلاحياته أن يحكم على الفرق الأخرى وأن يقرر بعدها أو قربها من الإسلام بمدى الخلاف الذى بين تلك الفرق وفرقته .

وهو لا يجد أى حرج فى أن يصدر أحكاما عامة أو خاصة على الآخرين بهذا الاعتبار على هذا الأساس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذلك قال الأستاذ الغوابى رغم اعتداله ومحبته لوحدة المسلمين فهو قد حدد لنفسه موقفا فى فرقة محقة لا تخضع للتقويم ومن موقفه العالى ذلك يرى الفرق الأخرى وهى ترتكب أخطاءها ولما كان من طبعه اللين والتسامح فقد راح يعتذر عنها — تأليفا — وثانيا — بأنها فرق ساذجة بسيطة ليس لها ملكة الفهم ولا التعمق والتفكير ومن كانت هذه حالته فينبغى ألا يؤاخذ وإنما يستأنس ويستجلب ويرفق به •

أو هذا على الأقل بالنسبة لما رآه عن الخوارج وقد أطلت النقاش فى موضوع الخوارج لأنه يعتبر الإباضية فرقة منهم وأغلب ما يقال عن الخوارج يشمل الإباضية •

بعد هذا يسرنى أن أنقل إليك بعض ما قاله فى الإباضية خاصة • فقد جاء فى كتابه القيم (تاريخ الفرق الإسلامية) فى فصل الخوارج ما يلى :

« وأما الإباضية وهم إحدى الفرق الأصلية (١) عند الأشعرى وينسبون لرئيسهم عبد الله بن إباض فإن فروعهم هى :

١ — الحفصية وإمامهم حفص بن أبى المقدام •

٢ — اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة •

٣ — الحارثية أصحاب حارث الإباضى •

---

(١) يقصد انها فرقة اصلية من فرق الخوارج لان ابا الحسن الاشعرى يرى أن الخوارج ينقسمون أولا الى فرق اصلية وان كل واحدة من الفرق الأصلية تنقسم الى عدد من الفرق يعتبرها الاشعرى فرقا فرعية للخوارج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ — ومنهم من يسمون أصحاب طاعة لا يراد بها وجه الله ومنهم الواقفية ومن الواقفية الضحاكية « واقفية أخرى » وسبب تسمية الأولى والثانية بالواقفية أن كلتيهما وقفت بين فريقين اختلفا على حكم فلم ينضما الى أحد الفريقين المختلفين وقالوا نقف فسموا واقفة لهذا » .

وقد سبق أن اطلع القارىء الكريم على هذه الفرق المزعومة عند الكتاب الأقدمين كأبى الحسن ومن ذكر بعده بتفصيل أكثر . وعلم هناك أنه لا أساس لنسبة هذه الفرق الفرعية الى الإباضية وأن ما ينسب إليها من المقالات لا يقول به الإباضية ومنه ما يحكمون على قائله بالكفر .

وقال الأستاذ الغوابى فى نفس المصدر ما يلى :

« أما الإباضية فقد تساهلوا فى كثير من الأحكام التى كان يشدد فيها سلفهم فقالوا إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين (١) ، وأن مناكحتهم جائزة ، ووراثتهم حلال ، وأن أموالهم إذا غنمت من الحرب حلال ، إذا كانت مما يعين على الحرب كالسلاح ، وما عدا هذا فى الأموال فهو حرام ، ويحرم قتلهم غيلة وفى السر ، وإنما يجوز القتل إذا أقاموا على خصومهم الحجة ، وأعلنوهم بالقتال ، وقالوا إن جميع ما افترضه الله سبحانه على خلقه إيمان فعندهم الإيمان تدخل فيه الأعمال ، والأعمال جزء منه ويظهر أن هذا الرأى هو الغالب على فرق الخوارج ، فتلك لطائفة تقدس الأعمال وترفع من شأنها ، ونعم هذا الرأى . وليت المسلمين يتمسكون به ، إلا أنه إذا ارتكب مؤمن كبيرة من

---

(١) انساق الغوابى مع التيار فاستعمل هذا التعبير الملتوى وله ما اختار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبائر فهو كافر كفر نعمة لا كفر شرك ، ولكن مع قولهم بهذا فإنهم يقولون بتخليده فى النار .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد لا دار كفر ، وهذا أيضا من نواحى تساهلهم . حيث أن سلفهم كانوا يقولون إن دار مخاليفهم دار شرك ، ومما خالفوا فيه سلفهم وكانوا أكثر تساهلا منهم فيه أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم ، وأما أطفال المشركين فبعضهم يلازمهم على غير طريق الانتقام ، وجوز أن يدخلهم الله الجنة ، وبعضهم يقول إن إسلامهم واجب لا جائز ، ومن هنا نرى أن متأخرى الخوارج كانوا أكثر تساهلا مع مخالفيهم أكثر من متقدميهم ، وأن هذا التساهل بدأ يزداد شيئا فشيئا ولا ندرى هل سبب هذا التسامح هو أنهم ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئا فشيئا حتى لا تقوم بينهم الحرب أم أنهم لما اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم الذين كانوا من عرب البادية ، وفيهم سذاجة وعدم عمق فى التفكير ، كانوا أكثر تسامحا مع مخالفيهم من سلفهم ولا مانع من أن يكون قد اجتمع لديهم السببان معاً . فالحروب قد أضعفت من حماسهم ، وأن مداركهم قد اتسعت عن مدارك سلفهم ، وأصبحت نظرتهم فاحصة وعميقة فى نواحى الدين أكثر من سلفهم » .

ويقول فى موضع آخر من الكتاب ما يلى :

« ولكن يظهر أن عدم الدقة فى الأحكام كانت عند أوائل الخوارج — كما قلت — وأما متأخروهم فإنهم قد دققوا فى الأحكام ، وفرقوا بين عمل وعمل ، ولم يشتطوا فى أحكامهم ، كما اشتط سلفهم وكما لاحظنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيما تقدم صارت أحكامهم على مخالفيهم فيها تسامح وفيها تساهل • ليس كل مخالف لهم كافرا أو مشركا ، وليس أطفال المشركين مخلدين فى النار • وليس حكمهم حكم آبائهم ، ويلاحظ أنه لما ضعفت قوتهم الحربية اتجهت نفوسهم نحو الإنتاج العلمى ، حتى أصبحت لهم مؤلفات فقهية وكلامية ولغوية وأدبية ، ويلاحظ أن فرقهم لم يبدهم أعداؤهم تماما بل بقى منهم إلى عهدنا هذا جماعات يسكنون فى إفريقيا الشمالية من خوارج الإباضية وهؤلاء يقيمون فى اقليم جبل نفوسة بطرابلس الغرب ، ويوجد كذلك فريق آخر بزنزبار بأفريقيا الشرقية » •

هذا ما قاله الأستاذ الغوابى عن الإباضية خاصة وواضح أنه استقى جميع معلوماته عن الخوارج عامة وعن الإباضية خاصة من مصادر غيرهم فهو لم يذكر أى كتاب من كتب الإباضية كما لم يذكر أى كتاب للخوارج إن بقيت لهم كتب بعد هذا أود أقف مع الأستاذ الغوابى وقفات قصيرة لمناقشة بعض النقاط الواردة فى بحثه •

النقطة الأولى : مخالفوهم :

من المؤسف أن الذين كتبوا عن الإباضية — وهم يحسبونهم من الخوارج كانت تسيطر أقلامهم عقدة مستحكمة لم يكد يتخلص منها واحد منهم ذلك أن بدا فى يوم ما كانت قد رسمت ببراعة الخط الذى يسير عليه من يكتب عن الخوارج وأن يكون هذا الخط لا يخرج فى طبيعة سيره عن معاملتهم لمخالفيهم وسار كتاب المقالات فى الخط المرسوم لا تكاد كتاباتهم عن الخوارج تخرج عن معاملاتهم لمخالفيهم ومحاسبتهم عليها الحساب العسير ، ولم يسمح أولئك الكتاب لأنفسهم أن يبحثوا ويناقشوا الجانب الثانى من الموضوع وهو معاملة مخالفيهم لهم ولم يخطر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهم أن يفرضوا حتى مجرد فرض أن هذا السلوك ربما كان رد فعل أو من بـــاب الدفاع •

وقد خضع الأستاذ الغوابى لهذا التوجيه وسار مـــع نفس الخط فذكر ـــ فى الفقرات القليلة كلمة مخالفيهم نحو عشر مرات صراحة فوق دلالة الضمير عليها • ولكثرة ما ترددت على ما فى كتب المقالات ولأنها المتجه الأساسى للكتاب ومركز لبحوثهم سميتها عقدة الكتاب عن الخوارج •

٢ ـــ الانسياق مع التيار :

انساق الأستاذ الغوابى مع تيار كتاب المقالات فذهب يعدد فروع المسألة الواحدة كما كانوا يفعلون هم للتهويل والإكثار ولو تأمل قليلا لوجد أنه قد ذكر للإباضية فى الفقرات السابقة إحدى عشرة مقالة منها ثمانى مقالات تتعلق بمخالفيهم • « هم غير مشركين ، مناكحتهم جائزة • وراثتهم حلال ، غنيمة أموالهم غير جائزة ما عدا السلاح (١) ، لا يجوز قتلهم غيلة أو فى السر ، لا يجوز قتال خصومهم إلا بعد الإعلان وإقامة الحجة ، دارهم دار إسلام ، شهادتهم جائزة عـــلى موافقيهم» وهـــذه المقالات كلها مسائل فرعية لموضـــوع واحـــد وهى فـــروع تنبى على أصـــل واحـــد هـــو الإســـلام فما دام الإباضـــية يرون أن جميع من نطق بكلمة التوحيد هو مسلم ســـواء وافقهم أو خالفهم وأنه بنطقـــه بكلمة الشهادة قد اكتسب جميع الحقوق التى عند غيره من المسلمين أو التى

---

(١) الاباضية لا يبيحون شيئا من اموال المسلمين حتى السلاح خوفا لمـــا ينسبه اليها كتاب المقالات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمنحها الإسلام للمسلمين فلا داعى لأن نبدأ فى تعداد تلك الفروع فرعاً فرعاً • لأنها من حقوق المسلمين جميعاً ولا تسقط عنهم إلا بأسباب حددتها الشريعة كما يسقط حق الباغى وقاطع الطريق فى عصمة دمه و لايباح ماله ولا سبى عياله • بل إن تلك الحقوق والحرم مصونة لكل مسلم لا تسقط أبدا مهما ارتكب ولا تضيع منه إلا بالخروج من الإسلام • والشىء الوحيد الذى يفقد الإنسان حق صيانته مع أنه مسلم إذا وجدت أسبابه هو دمه وذلك كالباغى والزانى •

٣ ــ تساهل الخلف :

يقول الأستاذ الغوابى ــ إن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم وقد أعاد هــذه الفكرة عدة مرات • ولست أدرى على أى مستند بنى حكمه هــذا ، فهو فيما يبدو لا يعرف أى كتاب من كتب الإباضية لأنه لم يذكر منها شيئاً فى مراجعه ومع ذلك فأنا أقول له إن تغير الاجتهادات فى غير القطعيات من محاسن هذه الشريعة ولم يخل منهــا مذهب من المذاهب الإسلامية وقد يتغير رأى عالم واحد فى قضية واحدة فيكون له فيها رأى أو آراء ولم يكن ذلك دليلا على أن صاحب الرأى الأول ، أو أن العالم فى رأيه الأول ، كان سطحياً أو ضــيق التفكير •

ومع هذا فأنا أؤكد للأستاذ الغوابى أن المسائل التى أوردها لم يتغير فيها رأى خلف الإباضية عن سلفهم فيما عدا مسألة واحدة هى مسألة أطفال المشركين فقد كانت عند السلف خلافية ورجح الخلف أنهم من أهل الجنة خدماً للمسلمين طبقاً للأحاديث الواردة فى الموضوع • أما المسائل الثمانية التى ذكرناها سابقا فهى فروع لأصل واحد كما قلنا ورأى سلف الإباضية فيها هو هذا الرأى الذى سجلناه وتكاد تجمع كتب التاريخ أن

أول من حكم بالشرك على مخالفيه من المسلمين فعاملهم معاملة المشركين وأسقط عنهم تلك الحقوق السابقة هو نافع بن الأزرق • وتكاد تجمع كتب التاريخ أن عبد الله بن إباض كان من أوائل من رد على نافع رأيه هذا اذا لم يكن أولهم على الإطلاق وقد سجلت منذ ذلك التاريخ حوالى سنة ٦٤هـ مواقف حاسمة لعبد الله بن إباض وجابر بن زيد فى مقارعة الخوارج فى موضوع الحكم بالشرك على المخالفين والقعدة وفى موضوع الحكم بالشرك على مرتكب الكبيرة • بل لقد كان الإباضية من أشد المسلمين على الخوارج فى هـذا الموضوع بالذات حتى أنهم كلنوا يطردون من يرى رأيهم من حضور مجالسهم واجتماعاتهم ويمنعونهم من الحديث بآرائهم تلك خوفاً على ضعفاء الناس وعوامهم • وأود الآن أن يعرف الأستاذ الغوابى ومن يرى رأيه أن سلف الإباضية — بعد الصحابة الذين هم سلف لجميع فرق الأمـة ومنهم الإباضـية — هم هؤلاء جابر بن زيد وعبد الله بن إباض وجعفر بن السماك العبدى وصحار بن العباس العبدى ثم من أخذ عنهم •

وليس فوق هؤلاء سلف غير الصحابة كما قلت آنفاً أما التابعون من طبقة جابر كالحسن والسعيدين وعطاء وغيرهم ممن هو فى درجتهم فهم أيضاً سلف لجميع الأمة والإباضية يضعونهم فى مكانهم بعد أصـحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنهم جميعاً •

وبهذا يتضح أنه لا معنى لمـا يراه من أن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم فى المواضيع التى عرضها أما فى غيرها من المواضيع الاجتهادية فى الفقه العملى فهم فيه كبقية الأمة قد يذهب أحد مجتهديهم من الخاف الى التيسير فى مسألة كان السلف يرى فيها التشديد ويحضرنى فى ذلك مثلان قريبـان :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأول فى قضاء رمضان فإن المعمول به عند الإباضية أنه يجب التتابع فى القضاء كما يجب فى الأداء • وذهب الأستاذ باكلى عبد الرحمن من علماء الإباضية المعاصرين الى عدم وجوب التتابع تيسيراً على الناس واستناداً الى ما ذهب اليه بعض الأئمة من غير الإباضية •

الثانى : يرى علماء السلف من الإباضية أن طعام أهل الكتاب يحل إذا كانوا تحت الذمة أما إذا لم يكونوا كذلك فلا يحل طعامهم ولا نكاح نسائهم • وكأنما يرون أن هذا مرتبط بالجزية والجزية تدل على وجود رقابة اسلامية عليهم فإن انعدمت الجزية انعدمت الرقابة وإذا انعدمت الرقابة انعدم هذا الإكرام أو الشرف الذى يعطى للكاتب دون غيره •

وقد زار أستاذنا إبراهيم بيوض أحد أئمة الإباضية ومجتهديهم فى العصر الحاضر • أوروبا ورأى العنت الذى يتكبده طلبة العلم بصفة خاصة فى موضوع الأكل فذهب الى تحليل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً سواء كانوا تحت الذمة ولم يكونوا كذلك تيسيراً على الناس واعتماداً على العموم فى الآية الكريمة واستناداً الى ما ذهب اليه بعض أئمة المسلمين فى مختلف العصور •

والمشكلة التى تركت الأستاذ الغوابى يضطرب هذا الاضطراب • ويفترض خلفاً متساهلا وسلفاً متشدداً فى قضايا انتقلت عبر القرون بألفاظها وحروفها هو ربطه للإباضية فى عجلة الخوارج اعتماداً على كتاب المقالات من غير الإباضية ودون الرجوع إليهم فى كتبهم •

٤ ــ بحث عن الأسباب :

يختار الأستاذ على الغوابى فى أسباب تساهل الإباضية عن سلفهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتسامح المتأخرين منهم عن المتقدمين وبعد الحيرة والتساؤل يستنتج أن ذلك كان للأسباب الآتية :

١ — ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئاً فشيئاً حتى لا تقوم بينهم الحروب •

٢ — اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم •

٣ — سلفهم كانوا من عرب البادية وفيهم سذاجة وعـدم عمق فى التفكير •

لا شك أن هذه الأسباب التى ذكرها الأستاذ الغوابى هى افتراضات قدمت لحلول مشاكل هى الأخرى افترضت افتراضاً ولا يعنينا فى شىء ، ما إذا كان يوافق الأستاذ الغوابى فى هذه الافتراضات أحداً من المستشرقين أو من الكتاب الآخرين • ولقـد كان بودنا لو أن الأستاذ الغوابى بنى استنتاجاته وفروضه بعد أن يكون اطلع ودرس تاريخهم الذى كتبوه عن أنفسـهم •

أشار الأستاذ الغوابى إلى ضعفهم بسبب كثرة حروبهم وربما يفاجأ القارىء بعكس الصورة إذا وضعت بين يديه الحقائق الآتية :

إن كتب التاريخ الإباضية — وهى أعلم بهم وبحروبهم — لم تذكر لهم حرباً فى الجزيرة العربية غير حرب واحدة هى الحركة التى قام بهـا عبد الله ابن يحى الكندى المشهور — بطالب الحق — طيلة عهـد الدولة الأموية رغم أن الإباضية كانوا منتشرين فى جميع أنحـاء البلاد العربية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان مركز تكوينهم وتجمعهم هو البصرة ورغم أن إمامهم عبد الله بن إباض كان شخصية مليئة بالنشاط والحركة وكان شديد العنف فى نقـده لملوك الدولة الأموية وسجلت له مناظرات مع عبد الملك بن مروان كما كان شديد العنف فى نقده للخوارج وسجلت له أيضاً فى ذلك مواقف ورسائل إلا أنه لم يشترك فى عملية حربية لا ضد هؤلاء ولا ضد هؤلاء بل لمـا طلب إليه عدد من الناقمين على الحكم الأموى أن يبايعوه رفض فى شدة ثم أشـار إلى عمران المساجد بالذكر والصلاة وقال فى لهجـة احتجاج أعلى هؤلاء يجوز الخروج ؟! ويتضح من هـذا أن تلك الفترة التى كانت مليئة بالدماء أمسك الإباضية أنفسهم فلم يلوثوها اللهم إذا كان من أفراد متطرفين ينتمون إلى الإباضية بالإسم لا بالمبدأ ..

وقد قام باسم الإباضية عدد من الدول فى أربعة مواضع من البلاد الإسـلامية هى :

١ ـ دولة فى عمان استقلت عن الدولة العباسية فى عهد أبى العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ولا تزال إلى اليوم . ولم تبدأ أحداً بحرب ، ولم تحاول أن تتوسع ، ولكنها هوجمت عـدة مرات فردت الاعتداء وحاولت الرد ، كما قامت فيها صراعات داخلية بين الإمامة والملكية ثم كان لها شرف دفاع الاستعمار الغربى نحو أربعة قرون فقد اتجه الاستعمار الغربى منذ القرن الخامس عشر الميلادى إلى الشرق وكانت دولة عمان من أهم الدول التى وقفت لصده ومحاربته منذ ذلك الحين إلى اليوم وقد كانت زنجبار شبه إمارة تابعة لعمان ثم استقلت بنفسها وبقيت كذلك حتى أزالها تعاون الإلحاد والعنصرية الإفريقية ضـد العروبة والإسلام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — دولة قامت فى ليبيا ١٤٠ هـ ولم تعمر طويلا فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات •

٣ — دولة قامت فى الجزائر سنة ١٦٠ هـ وقد بقيت إلى حوالى ١٩٠هـ ثم قضت عليها الدولة العبيدية ومنذ ذلك الحين لم يرفع الإباضية السلاح فى المغرب الإسلامى ضد المسلمين ولم تمتد أيديهم لإراقة الدماء اللهم إلا تلك المواقف النبيلة الشريفة التى وقفها أهل جزيرة جربة ضد الغزو الأسبانى عدة قرون وكانت لهم فى ذلك مواقع بطولة يعتز بها الإسلام والمسلمون أو مواقفهم مع كل مواطن تونسى ضد فرنسا فى حروب الاستعمار • وما عدا المواقف الحاسمة من جميع إباضية المغرب الإسلامى فى ليبيا وتونس والجزائر — ضمن جميع المواطنين فى هذه البلاد لصد الاستعمار الغربى عند هجومه وفى حروب التحرر عند إخراجه •

٤ — دولة قامت فى الأندلس ولا سيما فى جزيرتى ميورقة ومينورقة وليس لدينا من أخبارهما الكثير • وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفأ التعصب الغربى شعلة الإسلام فى تلك الديار •

ومن هذه الصورة الموجزة يتضح أن الإباضية كانوا بعداء جداً عن الموقف الذى تصورهم فيها الأستاذ الغوابى من كثرة الحروب أما من حيث تقربهم إلى غيرهم من المسلمين فلا شك أن هذا واقع ولكن ليس على الأساس الذى ظنه الأستاذ الغوابى ولكن على الأساس الذى أشار إليه رسول الله ﷺ « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن أخلاقكم » أو كما قال:

أما من حيث اتساع المدارك ومعرفة خلف الإباضية ما ليس يعرفه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلفهم فهم فى هذا كبقية المسلمين • ولا شك أن العلوم فى تقدم والفكر فى اتساع وهذا فى جوانب علوم الحياة أما من حيث علوم الشريعة ، فربما يكون العكس هو الصحيح • وهذا ليس بالنسبة للإباضية فقط وإنما بالنسبة لجميع المسلمين ، ذلك أن السلف — لقربهم من عهد النبوة — أعلم بمصادر التشريع فى كتاب وسنة وأقرب إلى فهمها فهما أصح ، وما يقال فى السنة يقال فى الإجماع ، ذلك أن الإجماع بمعناه المعروف عند الأصوليين لم يقع بعد عهد السلف فهو وإن اعتبر من مصادر التشريع إلا أنه لم يقع بعد ذلك العهد ، أما الإجماع الذى سبق عهد السلف وأعنى به الإجماع الذى وقع زمن الخلافة الرشيدة وهو إجماع الصحابة فهم أعرف به لأنهم هم الذين نقلوه إلى الخلف • بقيت مصادر التشريع الأخرى كالقياس والاستبدلال مما هو مجال للاجتهاد واستنباط الأحكام فى الحوادث والنوازل • فلا شك أن ثروة المتأخرين منه أكثر من ثروة المتقدمين وكلما امتدت الحياة بالإنسان أضيف إلى هذا الباب كثير من الأحكام • ويتضح من هذا أن خلف الإباضية لم يكونوا أوسع مدارك من سلفهم وكذلك بقية مذاهب الأمة وهذا من حيث استيعاب مصادر التشريع الأساسية التى هى الكتاب والسنة والإجماع •

أما الفقرة الثالثة من الأسباب التى افترضها فى سلف الإباضية وهى اعتبارهم من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق فى التفكير • فهى صورة قد ترددت كثيرا على أقلام المستشرقين عندما يكتبون عن الفتوح الإسلامية بأيدى العرب • فهم يصورون حركة الفتوح بأنها هجمات مجموعات بشرية من بدو الصحراء ضاقت بهم الحياة وحملهم شظف العيش على المغامرة بغزو العالم المتحضر لمكاسب مادية • وأن هذه المجموعات البشرية البدوية من السذاجة وسطحية التفكير بحيث استطاعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« قيادة ذكية » أن توجههم حسب مطامحهـا فتستفيد منهم وتحصـل بسببهم على انتصارات رائعة •

هـذه النغمة أو هذه الصورة التى يرسمها المستشرقون — لهوى فى نفوسهم — للمسلمين الفاتحين هى نفس النغمة التى رددتها بعض المصادر فى وصف الخوارج عموما وهى نفس الصورة التى أضفاها الكاتب المحترم على الإباضـية •

وقد يحق لنا أن نتساءل كيف استطاع الأستاذ الغوابى أن يحـكم بأن أفق خلف الإباضية أكثر انفساحاً من أفق سلفهم وهو لم يذكر أنه قرأ شيئا من آراء السلف أو آراء الخلف فى مصادرهم وإنما ما أخـذ عنهم من مصادر غيرهم ثم من أين عرف أنهم بدو وفيهم سذاجة وسطحية تفكير وهو لم يتح له أن يقرأ لهم ولم يتح له أيضـا أن يعرف تاريخهم اللهم ما عـدا الصورة الصغيرة المشوهة التى يعرضـها غيرهم لتنفير الناس منهم •

إن أحـكام الأستاذ الغوابى على الإباضية كانت مبنية على أسس غير سليمة وأعتقد لو أنه عرف تاريخهم من مصادر صادقة واطلع على مقالاتهم كما قالوها وكما نسبت إليهم لتغير كثير من أحـكامه ومع هذا كله فأنا أعتذر عن الأستاذ الغوابى بمـا يشبه اعتذاره عن الإباضـية فهو ولا شك مخلص فى دعوته محب لجمع كلمة المسلمين جميعاً مقدر لهم فى كل فرقهم معتز بهم بأخطائهم وإنما وقع فى عدد من الانزلاقات بسبب جهله بحقيقة تاريخهم وجهله بحقيقة مقالاتهم وجهله بالفروق الحقيقية بين المذاهب التى تحـدث عنها ونسبها جميعا إلى الخوارج • لم يبق لى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى ختام هـذا الفصل إلا أن أذكر أن خلف الإباضية كسلفهم يحاولون بكل ما أوتوا من جهد أن يتقربوا من بقية المسلمين ، وكلمة المسلمين تجمع كل من أقر بالجمل الثلاث مهما كان مذهبه • وإذا سعى إليهم أحد منهم ذراعا سعوا إليه باعا • وهم يتعاملون مع جميع المسلمين على مدى التاريخ كما يتعاملون مع أنفسهم • ويدعون كامل الحق لغيرهم من المسلمين أن يكيفوا عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم من طرقهم التى وثقوا بها واعتمدوها ، وليس يطلب الإباضية من غيرهم هـذا الحق وهو أن يتركوا فى عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم ووثقوا به واعتمدوه •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع أبى زهرة (١)

يقول الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة فى كتابه (المذاهب الإسلامية) صـــفحة ١٢٧ ما يلى :

« الإباضية هم أتباع عبد الله بن إباض وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا • ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف منهم فى بعض واحـــات الصـــحراء الغربية ، وبعض آخـــر فى بلاد — الزنجبار — ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية فى المواريث بعض آرائهم ، وذلك فى الميراث بولاء العتاقة ، فإن القـــانون المصرى آخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحـــد الزوجين ، مع أن المذاهب الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ، ويسبق الرد على أصـــحاب الفروض والأقارب » •

وجملة آراء الإباضـــية :

١ — إن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا • ويقولون عنهم أنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد ، وذلك لأنهم لم يكفروا بالله ، ولكنهم قصروا فى جنب الله تعالى •

---

(١) عند كتابة هذا الفصل كان الاستاذ ابو زهرة حيا يملأ الدنيا علمـــا وعملا وشاء الله أن يختاره الى جواره قبل ان يطبع هـــذا الكتاب ويطلع على ما قلنـــاه عنـــه •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢ — دماء مخالفيهم حرام ، ودارهم دار توحيد وإسلام ، إلا معسكر السلطان ، ولكنهم لا يعلنون هذا ، فهم يسرون فى أنفسهم أن دار المخالفين ودماءهم حرام •

٣ — لا يحل من غنائم المسلمين الذين يحاربون إلا الخيل والسلاح وكل ما فيه من قوة فى الحروب ، ويردون الذهب والفضة •

٤ — تجوز شهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث معهم •

وفى هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخالفيهم ..

ويقول الأستاذ أبو زهرة فى كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية) الجزء الثانى فى تاريخ المذاهب الفقهية صفحة ٥٣ مايلى :

« فرق لها مذاهب فقهية :

هذه الفرق السياسية منها ما ليس له مذهب فقهى قائم بذاته ، ومنهم من ليس له مذهب فقهى ، ويتبع مذهب طائفة أخرى قريبة منه فى الاعتقاد •

وأن الفرق التى لها مذاهب فقهية معتبرة ثلاثة هى :

الإثنا عشرية : فلها مذهب فقهى مقرر ، وله منطق فكرى ودينى وينسبون مذهبهم إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وسيكون له بعض البيان عندما نتكلم عن الإمام الصادق •

والثانية : فرقة الزيدية • ولهم مذهب فقهى يقرب فى منطقة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مذهب أهل السنة والجماعة ، وإمامها هو الإمام الجليل زيد بن علي زين العابدين رضي الله عنهما •

والثالثة : الإباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، ولهم فقه مدون ، وللإباضـية جهود في تحرير مذهبهم •

الأستاذ أبو زهرة من كبار علماء هذا العصر ، الذين تتجه إليهم الأنظـار في المسـائل الإسلامية وتسمع منهم الكلمة ، وتلتمس عندهم الحجة • ورغم أنه أبدى كثيراً من الاعتدال ، واستعمل الرقة واللطف ، وسجل له آراء جديدة سلمية في موضوع الفرق وعن الإباضية بالذات ، إلا أنه لم يسـلم من التأثر بالأقوال السـابقة التي ينقصـها التحقيق والتدقيق في التعبير وجلاء المعاني لكشف الحقائق كشفا لا يحتمل الإيهام أو الإبهـام •

ومع أننا كنا ننتظر من أبي زهرة خاصة — لمكانته العلمية الرفيعة — أن تكون كتاباته في جميع المواضـيع الإسـلامية متجردة ، غير متأثرة بأي مؤثر عدا الدراسة العلمية الموضوعية المبنية على الاطلاع الشخصي لاستخلاص الحقائق من مصادرها الثابتة والتي تتحرى مصلحة الأمـة المسلمة والتقريب بين وجهات النظر المختلفة في مذاهبها وطوائفها • إلا أن الأستاذ أبا زهرة — على مكانته السامقة في المعارف الإسلامية — قـد انساق — فيما يبدو — كما انساق غيره في تيار تاريخي جارف قد كونته — فيما مضى — عوامل تحكمت فيها السياسة والعصـبية والفتنة الناتجة عنهما أكثر مما تحـكم فيه العقل والعلم والدين ، وكانت الشفاه والأقلام التي تعمل بتوجيه وإيحاء أكثر سيطرة وعلنية من الأقـلام والشـفاه المسـتقلة •